صورة الأمر والنهي

في الذكر الحكيم

الدكتور محمود توفيق محمد سعد

صورة الأمر والنهي
في الذكر الحكيم

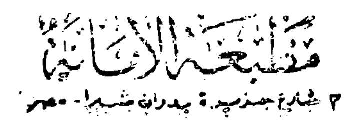
تأليف

الدكتور محمود توفيق محمد سعد

الأستاذ المساعد في جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته ٠

أما بعد فان الأمر والنهى معنيان رئيسان من معانى الذكر الحكيم ، فهما عمود التشريع فيه،والبيان القرآنى لم يعرب عنهما فى بعض سياقاته اعرابا صريحا ، بل جاءت الابانة عنهما فى صور مختلفة باختلاف أمور عدة : منها السياق الذى يقام فيه معنى الأمر أو معنى النهى ، ومنها حقيقة ما يؤمر به وما ينهى عنه من معانى التشريع ، ومنها واقع من يؤمر ومن ينهى ، وغير ذلك من القرائن والملابسات ذات الأثر البالغ فى اصطفاء الصورة التى يخرج فيها معنى الأمر أو معنى النهى والوقوف على تلك الصور سبيل الى حسن حركة الحياة على النحو الذى يرضاه خالقها جل جلاله ٠

وهذه الدراسة تعمد الى البحث عن تلك الصور المعربة عن معنى الأمر أو معنى النهى وتعنى بالتدبر البيانى لخصائص كل صورة وسياقاتها ومؤثرات اصطفائها ومنازعه ، ولما كانت بعض الصور ليس بمكنى استقصاؤها وحصرها من أن اعرابها عن ذلك المعنى اعراب سياقى وليس إعرابا وضعيا وما كان كذلك كان العسير استقصاءها وادعاء الاحاطة لا يليق ، لما كان ذلك فانى غير زاعم أن هذه الدراسة جامعة الجلى والخفى من صور معنى الأمر وصور معنى النهى فى الذكر الحكيم فلعل صورا أومأت الى ذلك المعنى فغفلت عنها بصيرتى لغشاوة أو جهالة ، وحسبى أنى صبرت وصابرت ورابطت طويلا فما أعاننى الله - عز وعلا - عليه بذلته ،وما طوى وادخره لغيرى فالعذر أحمد ٠

وهذه الدراسة مقصورة على صورة الأمر وصورة النهى وليست الى تلبير المناحى الدلالية لصيغة الامر ولصيغة النهى فى الذكر الحكيم فذلك باب فسيح جدير بأن يفرغ له بحث مستقل لعلى أقوم له أو أعين من يقوم له من أهل العلم وطلبته فانه باب فسيح ومرتقى صعب من أن روافد فقه دلالات الأمر والنهى فى الذكر الحكيم جد كثيرة الاحاطة بها والتمكن منها لا يسطيعها الا الفحول من أهل العلم ٠

ولما كانت هذه الدراسة عامدة الى صورة معنى الأمر ومعنى النهى اقتضى ذلك تحقيق معنى الأمر ومعنى النهى فى الذكر الحكيم ونحريرهما كيما أكون على بصيرة أنا والقارىء عن حقيقة المعنى الذى أسعى الى استبصار صوره ومسالكه فى البيان القرآنى ٠

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وامته

والحمد لله رب العالمين

وكتبه

محمود توفيق محمد سعد

الأستاذ المساعد فى جامعة الازهر

(شبين الكوم)

القاهرة : ١٨/٢/١٤١٣هـ

١٧/٨/١٩٩٢م

حقيقـــة المعنى

١ ـ حقيقة معنى الأمر عند العلماء :

حظيت حقيقة الأمر الاصطلاحية بيكثير من القول والاختلاف بين أهل العلم ، وهم برغم من ذلك متفقون على أنه طلب فعل غير كف ، ثم انهم يختلفون من بعد ذلك فى أطلاق هـذا الطلب وتقييـده بقيد يرجع الى الطالب أو الى كيفية هذا الطلب أو اليهما معا(١) .

ويمكن لنا ان نجمل اختلافهم فى أربعة مذاهب :

(الاول) يذهب اهله الى أن حقيقة « الامر » قائمة فى الطلب القولى لفعل غير كف دونما تقييد ذلك الطلب بقيد يرجع الى علاقة الطالب بالمطلوب منه أو الى كيفية طلبه منه فكان حده عندهم :

« القول المقتضى طاعة المـامور بفعل المـأمور به »(٢) .

وهم يذهبون الى أن العرب قد تسمى طلب الولد من والده أمرا ، وطلب العبد من سيده أمرا ، وان كان ذلك غير مستحسن عندهم أبدا ، ونحن بصدد اطلاق مصطلح الأمر على حقيقة معينـة : حقيقة الطلب الايجادى للأفعال ، ولسنا بصدد الاستحسان الخلقى أو عدمه .

---

(١) لا التفات لنـا الى اختلافهم فى جنس الطلب فى البيـان أقولى أم فعلى أم يشملهما فان جمهور أهل العلم على أن المراد هو الطلب القولى . ينظر : أصول السرخسى ١١/١ ، شرح اللمع للشيرازى ١٩٢/١ .

(٢) ينسب ذلك المذهب الى الأشعرى والغزالى والجوينى والباقلانى والبيضاوى وصححه الدسوقى .

راجعه فى : حاشية الدسوقى على مختصر السعد ٣٠٩/٢ (شروح التلخيص) الفوائد العيائية لطاش كبرى زاده ص ١٧٩ ، المستصـفى للغزالى ٤١١/١ ، المحصول للرازى ٤٥/٢/١ ، البرهان للجوينى ت/ عبد العظيم الديب ج ١ ص ٢٠٣ (ط / قطر /١٣٩٩) شرح المنهـاج للأصفهانى ٣٠٣/١ ، الأحكام للآمدى ٢٠٣/٢ .

وعمدتهم فى هذا ما حكاه الذكر الحكيم عن « فرعون » ، بقول الحق عز وعلا : « قال للملا حوله ان هذا لساحر عليم · يريد ان يخرجكم من ارضكم بسحره ، فماذا تأمرون · قالوا ارجه واخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم » (الشعراء /٣٤ ـ ٣٧) ·

وفرعون أعلى رتبة من قومه وما هم بالمستعلين عليه(٣) ·

وكذلك قول « دريد بن الصمة » يتحدث عن قومه :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد
فلما عصونى كنت فيهم وقد أرى غوايتهم فى أننى غير مهند

وكذلك قول « الحصين بن المنذر الرقاشى » ليزيد بن المهلب : أمير خراسان والعراق :

---

(٣) فى سورة الشعراء كان اسناد القول لفرعون ، بينما فى سورة الأعراف كان اسناد القول للملا « قال الملأ من قوم فرعون » (الآية/١١٠) فالقول صدر أولا من فرعون ، ثم ردده الملأ من بعده يقول البقاعى (ت ٨٨٥هـ) : « فكأن فرعون قال ذلك ابتداء ـ كما فى سورة الشعراء ـ فتلقفوه منه وبادروا الى قوله ، يقوله بعضهم لبعض اعلاما بأنهم على غاية الطواعية له خوفا على رئاستهم تحقيقا لقوله تعالى : « فاستخف قومه فأطاعوه » (الزخرف/٥٤) واختير هنا (أى فى سورة الأعراف) اسناده اليهم لأن السياق للاستدلال على فسق الأكثر وأما هناك (أى فى سورة الشعرا) فالسياق لأنه اراد سبحانه أنزل آية خضعوا لها كما خضع فرعون عند رؤية ما رأى من موسى ـ عليه السلام ـ حتى رضى لنفسه بأن يخاطب عبيده ـ على ما يزعم ـ بما يقتضى أن يكون لهم عليه أمر فلذا كان اسناد القول اليه أحسن لأن النصرة عن مقارعة الرأس أظهر وخضوع عنقه أضخم وأكبر » اهـ ·

تفسير نظم الدرر ج ٨ ص ٢٤ ، ج ١٤ ص ٢٩ (ط/الهند) ·

أمرتك أمرا حازما فعصيتني فاصبحت مسلوب الامارة نادما
فما أنا بالباكي عليك صبابة وما أنا بالداعي لترجع سالما

وكذلك قول « عمرو بن العاص » للخليفة « معاوية بن أبي سفيان » في شان أحد العلويين الخارجين على الدولة الأموية ، وقد تمثل عمرو بن العاص بشطر بيت الحصين بن المنذر السابق ·

أمرتك أمرا حازما فعصيتني وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
أليس أبوه - يا معاوية - الذي أغار علينا يوم حز الغلاصم

كل من دريد والحصين وابن العاص ما كان بالأعلى على مخاطبه ولا بالمستعلي عليه ، بل هو نظيره أو دونه ، وقد جعل كل منهم طلبه من مخاطبه أمرا ، وسمى عدم فعل ما طلبه منه معصية ، فدل ذلك على أن الأمر في لسان العربية غير مقيد بمنزلة الآمر من المأمور ، ولا بكيفية أمره وأدائه ، بل العبرة أن يكون طلبا قوليا دالا على ايجاد فعل غير كف ·

** في استدلال أصحاب هذا المذهب نظر :

أما الآية فان الاستدلال بها غير ملزم ، اذ ان قوله « تأمرون » يجوز أن يراد به تشيرون ، والمشورة لا يشترط فيها علو أو استعلاء(٤) ·

والفصل من هذا عندي أن نقول : ان البيان بقوله « تأمرون » وارد على نهج وسنة الولاة الطواغيت في مخاطبة شعوبهم حين ينزل خطب يهز عروشهم أو حين يريدون خداعهم والتدليس عليهم في أمر يعلم أولئك الطواغيت انه الباطل الزهوق الذي لا يرضى رب العالمين البتة ، فيتظاهرون بأنهم يأتمرون بأمر شعوبهم وينزلون على رأى قومهم وأنهم يحسون بنبض الشارع ويعلمون أمل الجماهير ورغبتها وأنهم يلتزمون بذلك

---

(٤) انظر : فتح القدير للشوكاني ٩٨/٤ ، التحرير والتنوير للطاهر لابن عاشور ٤٣/٩ ·

فيما يحكمون ويقررون ، يقولون ذلك ونسمعه صباح مساء ثم يوقعون بشعوبهم ما تسول لهم نفوسهم وشياطينهم من الانس والجن ٠

وكذبوا : افلا يسمعون ما يريد منهم خالقهم لا ما تريده منهم شعوبهم؟ أيهم اولى بالطاعة ان كانوا طائعين ؟ لكنها شنشنة كل طاغية ورثها عن سيده وامامه فرعون موسى ٠ أن فرعون ما قال « فماذا تامرون» الا خداعا وتدليسا ومثله كل طاغية لا يحكم بما أنزل الله عز وعلا ، وان تشـــدق بما يتشـــدق ٠

والقرآن انما يقص علينا انبـاء « فرعون موسى » ويحكي لنا أقواله ليصور لنا حقائق الطغاة فينا ، فهو ســـيدهم وامامهم ، وهم في نهجه يسدرون وبشرعته يحكمون ، ولعل هذا وجه من وجوه تكرير ذكر قصة فرعون في القرآن ، فهي أكثر القصص تكريرا وتصويرا ٠

أما أبيات دريد والحصين وابن العاص فالاستدلال بها أيضا غير ملزم عندي اذ ان تسمية طلبهم ممن ليس دونهم منزلة أمرا أنما هو على نهج الابلاغ في الدلالة على أنه كان ينبغي على المطلوب منه ذلك أن ينزل ذلك منزلة الأمر في استحقاق الايقاع والالتزام بالانفاذ ، وآية ذلك أن الثلاثة قد صرحوا بعقبى التهاون في انزال طلبهم منزلة الأمر والاستهنار في النظر اليه على أنه مشورة وليس كالأمر ٠

دريد بن الصمة قال : « فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد » فنعى عليهم بالعتبى ٠

والحصين قالها لمخاطبه : « فأصبحت مسلوب الامارة نادما » ولات ساعة مندم ٠

وابن العاص اوردها : « وكان من التوفيق قتل ابن هاشم » فقد نعى بالعتبى على معاوية اذ لم ينزل طلبه منه منزلة الأمر في استحقاق الانفاذ ٠

(الثاني) يذهب أصحابه الى تقييد حقيقة الأمر بأ نيكون الآمر أعلى منزلة من المأمور في نفس الشأن والواقع سواء كان وجه العلو في هذا

معتبراً عند الله عزوعلا ، كعلو العالم التقى على الجاهل والحاكم العادل على قومه ، فان لكل حق الطاعة فى المعروف ، أو كان العلو معتبرا عند الناس كعلو الغنى على الفقير والحسيب على غيره ، فالأمر عندهم : « استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه »(٥) ·

وهم اذ يشترطون علو الطالب على المطلوب منه فى الواقع انما ينظرون الى « أن الاستدعاء من النظير ، وممن هو أعلى منه لا يسمى أمرا على الحقيقة ، وان كانت صيغته صيغة الأمر ، وانما يسمى طلبا ومسألة وان استعمل فيه لفظ الأمر فعلى سبيل المجاز »(٦) ·

وليس يخفى أن قول أحدنا لله رب العالمين: «اهدنا الصراط المستقيم» لا يستطيع عاقل أن يسميه أمرا ، وكذلك قول ذلك الصحابى للنبى صلى الله عليه وسلم :

« يا رسول الله علمنى كلمات أعيش بهن ، ولا تكثر على ، فأنسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تغضب »(٧) ·

---

(٥) يذكر القاضى عبد الوهاب المالكى أن هذا المذهب منقول عن أهل اللغة وجمهور أهل العلم ، وينسب الى جمهور المعتزلة وبعض أهل السنة :

راجعه فى حاشية الدسوقى على مختصر السعد ٢٠٩/٢ ، الفوائد الغيانية /١٧٩ ، شرح المفصل لابن يعيش ٥٨/٧ ، المغنى لعبد الجبار ١٠٧/١٧ ، المحصول ٤٥/٢/١ ، شرح اللمع للشيرازى ١٩١/١ ، الفصول فى الأصول للجصاص ٧٧/٢ ، كشف الأسرار على اليزدوى للعلاء البخارى ١٠١/١ ، العدة لأبى يعلى الفراء (ت/ أحمد المباركى) ١٥٧/١ (ط / الرسالة بيروت سنة ١٤٠٠هـ) ·

(٦) شرح اللمع للشيرازى ١٩٢/١ ·

(٧) الموطا للامام مالك : ما جاء فى الغضب – حديث رقم ١٧٤٥ (شرح الزرقانى جـ ٢٥٨/٤ – ٢٥٩) ·

وكل ما كان على تلك الشاكلة لا يقال انه أمر ، وان كانت صيغته موضوعة للأمر ٠

(الثالث) يذهب أهله الى تقييد حقيقة الامر بقيد هيئة الآمر وأدائه بأن يصدر الطلب من صاحبه على هيئة الاستعلاء أى من غير تذلل أو خضوع ، وذلك بأن يعد الطالب نفسه عاليا على المطلوب منه سواء كان كذلك عاليا فى نفسه أم مستعليا ، المهم أن يظهر حالة العلو « بكون كلامه على جهة الغلظة والقوة لا على جهة التواضع والانخفاض »(٨) ومن ثم جعلوا حد حقيقته فى أنه « طلب فعل غير كف بالقول على جهة الاستعلاء »(٩) ٠

هذا المذهب يخالف الذى قبله فى أن ذاك يشترط علو الآمر فى حقيقته وان كان أداء الطلب على غير هيئة الاستعلاء ، وهذا ينظر الى صورة الأداء لا الى منزلة الآمر ٠

وقد اعترض على اشتراط الاستعلاء والنظر الى صورة أداء الطلب بأن الكتاب العزيز فيه ما هو فى غاية التلطف ونهاية الاستجلاب بتذكير النعم والوعيد بالنقم ، كما فى قوله تعالى :

« اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم » (البقرة /٢١) وقوله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى » (آل عمران /٣١) الى غير

---

(٨) مواهب الفتاح للمغربى ٤٠٩/٢ (شروح التلخيص) ٠

(٩) يقول بها جمهور البلاغيين وجمهور الأحناف والرازى ، وابن الحاجب والآمدى وأبو الحسين البصرى ٠

راجعه فى المطول ص ٢٣٩ ، الطراز للعلوى ٢٨١/٣ ـ ٢٨٢ ، الدسوقى على المختصر ٣٠٩/٢ والمصباح لابن الناظم ص ٩٠ (ت/ حسنى يوسف / طبعة (١) سنة ١٤٠٩ ، السيد على الكشاف ٦٧/١ ، الفوائد الغيانية /١٧٩ ، المحصول للرازى ٢٢/٢/١ ، المعتمد لأبى الحسين البصرى ٤٣/١ ، التلويح للسعد ٢٨٨/١ ٠

ذلك من الآيات المنافية لاشتراط الاستعلاء ، والا لزم أصحاب هذا المذهب اخراج مثل ذلك عن كونه أمرا ، بل يلزمهم أن يخرجوا كل صيغة أمر لا يدل دليل على وجود الاستعلاء الذى هو هيئة قائمة بالآمر وأكثر الأوامر لا يوجد فيها ذلك(١٠) .

دفع هذا الاعتراض « الصنعانى » بأن أوامر الله عزوجلا كلها صادرة عن العلو رتبة بلا ريب ، وعن الاستعلاء ، فانه الأحق بذلك الا أنه لا يقال فى تفسيره : عد نفسه عاليا واعتقدها كذلك ، بل بمعنى أنه أهل لذلك الاستحقاق ، وأما قرنه أوامره بتذكيره نعمه فليس لأنه لا علو ولااستعلاء بل ذكر ذلك عقب الأمر من باب الاستدلال على وجوب طاعته وامتثال أمره ، وليس من باب التلطف فى العبارة ، بل الأمر وقع بلفظ « افعلوا »(١١) ثم أتبعه بدليل يزيدهم بعثا على طاعته وابانة لمنافع ما أمر به »(١٢) فذلك من فيض الربوبية الشاملة للعالمين » فأمره عباده بما يحب منهم مقرون بما يبعثهم على القيام به ان استعموا .

(الرابع) يذهب أصحابه الى تقييد حقيقة الأمر بالقيدين معا : العلو والاستعلاء ، فهو عندهم : استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه على سبيل الاستعلاء(١٣) .

---

(١٠) الابهاج فى شرح المنهاج للتقى السبكى وولده التاج ٢/٧ - ٨

(١١) يريد صيغة (افعلوا) .

(١٢) اجابة السائل شرح بغية الآمل للصنعانى ١/٢٧٧ (ت/ السباعى ، والأهدل) .

(١٣) ينسب هذا الى القاضى عبد الوهاب المالكى ولأبى نصر بن القشيرى النيسابورى راجعه فى حاشية الدسوقى على مختصر السعد ٢/٣٠٩ (شروح التلخيص) شرح الكوكب المنير لابن النجار ٣/١٢ ، نهاية السول للاسنوى ٢/٨ .

فاذا كان الطلب من الأعلى على سبيل الارشاد لا يكون أمرا حقيقة وان كان ممن هو الأدنى أو النظير لا يكون كذلك أمرا .

وغير خفى أن اشتراط علو الطالب وحده كما هو المذهب الثانى انما هو اشتراط أمر خارج عن صيغة الأمر وصورته وبناء الأسلوب نفسه بل هو أمر راجع الى من يصدر عنه البيان والنظم وحاله رافد من روافد فقه دلالة هذا النظم ، وهذا يدخل فى حقيقة الامر ما لا الزام فيه كالأمر الارشادى وما شاكله . فالأمر عندهم قائم على دعامتين : الطلب القولى لايجاد فعل غير كف ، وأن يكون طالبه عاليا فى نفسه أيا كانت هيئة طلبه ذلك من المطلوب منه ، فدائرة حقيقة معنى الأمر عندهم فسيحة .

واشتراط استعلاء الطالب وحده دون اشتراط علوه ، كما هو المذهب الثالث انما هو أخذ بأمر راجع الى صفة الكلام وهيئته دونما نظر الى واقع منشئه ومن يصدر عنه ذلك الطلب وعلاقته بالمطلوب منه. والاخذ بحال الكلام وأداء النظم أقرب الى الادراك من الأخذ بحال المتكلم اذ أن حال الكلام قرينة مشهودة بينما حال المتكلم قرينة حالية قد لاتشاهد ولا تنقل ، وما كان مشهودا أقرب ادراكا وأسرع استحضارا ، وبناء المعنى لا يعتمد على واحد منهما من دون الآخر وان اختلفا قربا وبعدا فى الادراك والاستحضار .

والاكتفاء بطلب العلو (الاستعلاء) دون اشتراط تحقق العلو فى الواقع يخرج من حقيقة الامر ما كان طلبا على غير صورة الغلظة ، وهذا المذهب يؤول فى بيان الكتاب وأنسنة الى المذهب الرابع المشترط العلو والاستعلاء معا ، لأن الاستعلاء المشترط فى المذهب الثالث يقترن به علو الآمر ضرورة أن الآمر فى بيان الكتاب انما هو الله عز وعلا ، وفى البيان النبوى انما هو الرسول صلى الله عيله وسلم ، فالأخذ بالعلو والاستعلاء معا ــ كما هو المذهب الرابع ــ انما هو الآنس بحقيقة الأمر فى كل من البيان القرآنى والبيان النبوى . بينما المذهب الثالث المشترط استعلاء لا علوا هو الآنس بحقيقة الأمر فى بيان غيرهما ، اذ استعلاء فيه لا يقتضى علو الآمر ضرورة .

وعلى ذلك فحقيقة معنى الأمر في غير البيان القرآني والنبوي هي : القول الطالب صاحبه استعلاء ايجاد فعل ممكن مراد غير حاصل وقت طلبه على الحال التي طلب عليها فعلا غير كف مدلول عليه بافعل ونحوه .

وحقيقته في بيان الوحي (القول الطالب ايجاد فعل ممكن مراد غير حاصل وقت طلبه على الحال التي طلب عليها ، مدلول عليه بافعل ونحوه) .

وغير خفي أنني جعلت المطلوب ممكنا لاخرج ما كان للتعجيز ونحوه فليس من معني الأمر في شيء ، وجعلته مرادا لأخرج أيضا ما كان غير مراد كما في قوله تعالى « أعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير » (فصلت /٤٠) وشرطت أن يكون غير حاصل وقت الطلب لأن ما كان حاصلا وأريد الثبات عليه دون زيادة وترق ، كالأمر بفعل حاصل لايقبل الزيادة فهو حينئذ أمر بالثبات عليه ، فهو في قوة قولك اثبت عليه ، وزدت على هذا قولي (على الحال التي طلب عليها) لأدخل في حقيقة معنى الأمر الأمر بفعل حاصل وقت الطلب وهو من الافعال التي تقبل الزيادة والارتقاء كالايمان والتقوى والعلم .. الخ فمثل هذه الأفعال لا منتهى لمقاماتها ومدارجها ، فاذا أمر من هو متبلس بها فهو أمر بها في مستوى أعلى وأرقى ، فقوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : « اتبع ما يوحى اليك من ربك لا اله الا هو وأعرض عن المشركين » (الأنعام /١٠٦) وقوله « يا أيها النبي اتق الله » (الأحزاب /١) ونحو ذلك انما هو داخل في حقيقة الأمر لأنه ليس أمرا بالثبات على الاتباع وبالاعراض عن المشركين وبتقوى الله . فذلك كائن - لا ريب - ولن ينقطع البتة من انه المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ولكنه أمر بالارتقاء في مقامات تلك الأفعال ومدارجها ، فانها لا تتناهى .

وجعلت الفعل مدلولا عليه بصيغة أفعل ونحوها ، ليدخل فيه طلب الكف بما دل عليه بمادته ونحوها كقولنا كف عن كذا ، ودع وذر ، لا ما دل عليه بصيغته كقولنا لا تفعل ، وليدخل فيه ما دل عليه التركيب

في سياق دون سياق كافادة بعض التراكيب الخبرية أو الاستفهامية معنى الأمر ، فقولى ونحوها يشمل ما دل بصيغته الافرادية أو التركيبية السياقية ·

واذا ما كنت قد أدخلت تلك القيود الكاشفة الضابطة في صياغة حقيقة معنى الأمر ، فان الشروط والقيود المحققة المحررة حقائق المعانى مما يقتضيها الحد والتعريف ، ذلك أن «الغرض من الحد الاشعار بالحقيقة التى بها قيام المسئول عن حده وبه تميزه الذاتى عما عداه »(١٤) «وكل ما دل على ماهية الشيء هو ضرورة فى تعريف ذلك الشيء ، فذكر تلك القيود ضرورة ·

ولم أذكر قيد العلو والاستعلاء فى بيان حقيقة معنى الأمر فى الذكر الحكيم لأنهما متحققان ضرورة وما كان كذلك لا ينص عليه ·

٢ ـ حقيقة معنى النهى عند العلماء :

الذى عليه جمهور أهل العلم أن « النهى » كالأمر فى حقيقة معناه الا أن « الأمر » طلب ايجاد فعل غير كف وأن « النهى » طلب كف عن ايجاد فعل ، وهم أيضا على أن فى « النهى » المذهب التى هى فى حقيقة معنى الأمر :

منهم من جعل حقيقته القول المقتضى طاعة المنهى من نهاه بالكف عما نهاه عنه · ويرد على هذا المذهب ما ورد على المذهب الأول من الأمر ·

ومنهم من اشترط استعلاء الناهى ، فجعل حقيقة معناه : القول الدال على طلب الامتناع من الفعل استعلاء ·

ومنهم من جمع بين اشتراط علو الناهى واستعلائه(١٥) ·

---

(١٤) البرهان للجوينى ت/ عبد العظيم الديب ١١٩/١ (ط/قطر)

(١٥) راجع : المطول للسعد /٢٤١ ، الأطول ٢٤٩/١ ،شروح التلخيص ٣٣٤/٢ ، المصباح لابن الناظم ص ٩١ ، المعتمد لأبى الحسين البصرى ١٦٨/١ ، شرح اللمع ٢٩١/١ ، البرهان للجوينى ٢٨٣/١ ، العدة لأبى يعلى ١٥٩/١ ، كشف الأسرار للبخارى ٢٥٦/١ ، التلويح ٤١٤/١ ، فواتح الرحموت ١٦٨/١ ، شرح مختصر ابن الحاجب للعضد ٩٥/٢ ·

وكل ذلك مثله ما في المذاهب السابقة في حقيقة معنى الأمر مما يغني ذكره هناك عن ذكره هنا ، وكذلك الذى نصطفيه هنا هو كالذى اصـطفيناه هناك سـواء في بيان الوحي أم في غيره ، فحقيقته في بيان الوحي :

القول الطالب كفا ممكنا مرادا عن فعل ممكن مدلول على ذلك بصيغة لا تفعل ونحوها •

وحقيقته في غير بيان الوحي : القول الطالب اسـتعلاء الكف الممكن المراد عن فعل ممكن ••• الخ •

وغير خفي فرق ما بين الحقيقتين ، في الأول علو الطالب واستعلاؤه ضرورة فلم تنص عليهمـا في التعريف ، وفي الثـاني العلو غير مطلوب والاستعلاء ليس ضرورة عقلية فكان النص عليه في التعـريف ضرورة • وجلي اني زدت هنا وصف الكف بالامكان مثلما وصفت الفعل المراد الكف عنه بالامكان ، لأنه اذا نهي عن فعل لا يمكن الكف عنه فليس ذلك بنهي حقيقة ، فثم أفعـال ليس بملك المرء أن يكف عنهـا ، وهي التي لا دخل له فيها ، وكذلك أن نهي فعل لا يمكن وقوعه منه ، فان العبارة حينئذ ليست نهيا حقيقة لأنه انما ينهى عما يمكن فعله ويدخل في ذلك النهي الموجه الى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أفعال هو معصوم منها ، كالشرك بالله ، وكما في قوله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » (ابراهيم /٤٢) اذا ما قلنا ان الخطاب في الآية للنبي صلى الله عليه وسلم • المهم أنه لا يدخل في حقيقة النهي ما لن يكون من المخاطب عجزا أو عصمة •

ويخرج من حقيقة النهي ما كانت الصيغة فيه لغير طلب الكف كالتي تكون للتسخير أو التفخيم •

ويدخل في حقيقته طلب الكف عن فعل واقع عند الطلب أو سيفعل من المخاطب حقيقة أو احتمالا •

في ضوء ما مضى بانت لنا حقيقة معنى النهي مثلما بانت حقيقة معنى الأمر من قبل •

صـــورة المعـنى

لمعنى الأمر والنهى فى العربية عامة وفى البيان القرآني خاصة صور عديدة بعضها دال على ذلك المعنى صراحة عند تجرده من القرائن الصارفة عنه الى غيره من المعانى ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه الصـورة الوضـعية للمعنى أو الصورة الصريحة • وبعضها دال على ذلك المعنى تلويحا بمعونة السياق والقرائن ، وهو ما يمكن أن تسميه الصورة غير الصريحة •

الصور الوضعية الصريحة محدودة شـأن التراكيب الوضعية بنيما الأخرى غير محدودة وغير متفق عليها ، فتعديدها وتحقيقها يرجع الى لقانية المتدبر والباحث المنقب •

الضرب الأول : الصـيغة

١ ـ صيغة الأمر : وهى على نوعين كليين :

* ما دل على معنى الأمر بأداة خارجية مقترنة بالفعل المطلوب ايجاده
* ما دل عليه بصيغة الفعل المطلوب نفسه أو ما يقوم مقامه من غير أداة خارجية •

(النوع الأول) : ما دل على معنى الأمر بأداة خارجية مقترنة بصيغة الفعل المطلوب ، وهو المضارع المقترن بلام الجزم المكسورة (ليفعل) وما شاكلها ، كما فى قوله تعالى :

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضـعافا خافوا عليهم • فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديداً » (النساء /٩) •

ففى الآية ثلاثة أوامر جاءت بصيغة (ليفعل) : (وليخش ، فليتقوا وليقولوا) جعل سبيل الوقاية للذرية الضـعيفة مما يخاف عليهـا من العاديات ثلاثة : خشية الله عز وعلا وتقواه والقول السـديد •• ثلاثية تشكل سياج الأمن والطمأنينة الحانية على كيان الذرية وجودا وسعادة وهذه الثلاثية : البعد عما حرم الله ، واتقاء الاقتراب مما حرم بترك بعض

ما لا بأس كما هي حقيقة التقوى(١) وسداد القول ، هذه الثلاثية هي التى ينفر منها الوجلون على ذرياتهم من عاديات الغيب • فاذا النهب والسلب والسرقة والكذب والفجور هي السبيل الذى انتهجوا •

العلماء مختلفون في بيان عناصر صيغة الامر فى (لتفعل) أهى عنصر واحد هو المضارع نفسه واللام قرينة ، أم هى من المضارع واللام معا(٢) وتحقيق هذا عائد على النظر فى الدلالة حين تحذف لام الأمر ، أيكون حذفا لقرينة مقالية ام حذفا لعنصر من عناصر الصيغة •

الحذفان فى لسان العربية سائغان شائعان بل قد تحذف الصيغة كلها كما تراه في حذف أداة الاستفهام والنداء مثلا •

واقتران « لام » الأمر بالمضارع متفاوت فى الكثرة والقلة :

** يجب اقترانها به اذا ما كان مبنيا للمفعول متكلما كان مرفوعه أو مخاطبا أو غائبا •

** ويكثر اقترانها به اذا ما كان مبنيا للفاعل ومرفوعه غائبا ، كما فى قول الله عز وعلا :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » (النساء / ٧٦) •

** ويقل اقترانها اذا ما كان المضارع مبنيا للفاعل ومرفوعه متكلما كما فى قوله تعالى :

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » (العنكبوت /١٢) فاللام فى (لنحمل) لام أمر أريد به الخبر بدلالة

---

(١) عن عطية السعدى وكان من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به بأس » ابن ماجة : كتاب الزهد - باب الورع والتقوى ١٤٠٩/٢ حديث رقم /٤٢١٥ •

(٢) مواهب الفتاح للمغربى ٣١١/٢ •

تكذيبهم بعده (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون) وانما عدل عن الخبر الى الأمر لأن صيغة الأمر باللام أوجب وأشد تأكيدا في نفس السامع ففيها من المبالغة في الالتزام ما فيها على نحو ما نراه من المبالغة في صيغة التعجب كما في قولك (أحسن به)(٣) ٠

فهذا الأمر في تأويل الشرط والجزاء أي ان تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم ، ولما كان أسلوب الشرط اخبارا فيه مظنة الخلف وكان الأمر انشاء فيه استدعاء الامتثال كان العدول الى الأمر آكد في الدلالة على ايقاع الحمل ٠ وذلك فيه بيان وهدى وكشف نهج المضللين المفسدين في الأرض : يعمدون أبدا الى سلوك طريق الخديعة والتأثير الساحر على الآخرين ، وكم من طاغية فينا يوسوس الى بطانته أن يعبثوا في الأرض فسادا وفقا لما يريده الطاغية منهم ، وأنه يحمل عنهم تبعات ذلك كله اذا ما زلقت أقدامهم وافتضح أمرهم ٠

انه الواقع الجاثم على حياتنا حكاه القرآن الكريم لنا من قبل وهذا شأن القصص القرآني يحكي ما كان ليهدي الى التي هي أقوم فيما سيكون أو هو كائن فينا فمن النصح اللازب في تدبر قصص القرآن رؤية حركة الحياة الشاخصة في مرآة هديه « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » (آل عمران /١٣٨) ٠

** وأقل من الصورة الآنفة دخول لام على المضارع اذا ما كان مرفوعه مخاطبا ، وذلك كما في قراءة « يعقوب » برواية « أويس » قوله تعالى :

« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون » (يونس /٥٨) ٠

---

(٣) التبيان في اعراب القرآن للعكبري ٢/١٨٢ ، معاني القرآن للفراء ٢/٣١٤ ، المحرر الوجيز لابن عطية بتحقيق المجلس العلمي بمكناسي المغرب جـ ١٢/٢٠٦ (ط/٨ ،١٤٠هـ) ٠

حيث قرأ بالتاء كلا من قوله (تفرحون) وقوله (تجمعون) وهي قراءة عشرية متواترة(٤) وهي « أدل على الأمر بالفرح وأشد تصريحا به ايذانا بأن الفرح بفضل الله ورحمته مما ينبغي التوصية مسافهة به »(٥).

ولام الأمر شديدة الاتصال بما تدخل عليه حتى أضحت كحرف من حروف المضارع ، فعوملت معاملته فلحقها التسكين اذا وليت واو العطف أو فاء ، كما في قوله تعالى :

« وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » (الحج /٢٩) كما في قراءة غير ابن عامر باسكان اللام(٦) .

وعلى الرغم من شدة اتصال هذه اللام بالمضارع فقد جاء في لسان العربية حذفها مع بقاء عملها ودلالتها .

وقد جعلها « البصريون » كذلك في الشعر خاصة ، يقول سيبويه:

« واعلم أن هذه اللام قد يجوز حذفها في الشعر وتعمل مضمرة كأنهم شبهوها بأن اذا أعملوها مضمرة »(٧) .

وقد جاء ذلك في غير قليل من الأشعار التي استشهد بها النحاة(٨) ولكن « الكسائي » يذهب الى حذفها وبقاء عملها ودلالتها في الاختيار بعد فعل قول دل على الأمر(٩) كما في قوله تعالى :

---

(٤) المبسوط في القرآن العشر لابن مهران ص ٢٠٠ ، المحرر الوجيز لابن عطية ٥٧/٩ .

(٥) عناية القاضي للشهاب الخفاجي ٤١/٥ (ط/دار صادر - بيروت)

(٦) المبسوط لابن مهران ص ٢٥٧ ، رصف المباني للمالقي ص ٣٠٣ .

(٧) الكتاب لسيبويه ٨/٣ (ت/ هارون - ط سنة ١٤٠٣ بيروت)

(٨) السابق ٨/٣ -٩ ، شرح المفصل لابن يعيش ٣٥/٧ ، ٦٠، والمغنى لابن هشام ١٨٦/١ ، الأصول في النحو لابن السراج ١٥٧/٢ ، شرح شواهد المغني للسيوطي ٥٩٧/٢ - ٦٠٠ .

(٩) همع الهوامع للسيوطي ٥٥/٢ .

« قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة » (ابراهيم /٣١) ٠
وقوله : « قل للمؤمنين يغضوا » (النور /٣٠) ٠
وقوله : « وقل للمؤمنات يغضضن » (النور /٣١) ٠
وقوله : « قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » (الأحزاب /٥٩) ٠
وقوله : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله » (الجاثية /١٤) ٠

المضارع فى الآيات السابقة انما هو مقول (قل) وهو على تقدير « لام » الأمر فهى أفعال مجزومة بلام الأمر المحذوفة ، فالنبى صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يأمرهم بتلك الأفعال ٠

وذهب « ابن مالك » الى جواز حذف « لام » الأمر مع بقاء عملها ودلالتها ، وان لم يكن قد تقدم قول فيه أمر ، مستدلا على ذلك بقول الراجز :

قلت لبواب لديه دارها
تيذن ، فانى حموها وجارها

فليس الراجز فى هذا مضطرا فانه يمكن أن يقول « ايذن » على وزان « افعل »(١٠) ٠

وقال « أبو حيان » وليس لقائل أن يقول هذا من تسكين المرفوع اضطرارا ، فانه لو قصد الرفع لتوصل اليه باستغنائه عن الفاء(١١) ٠

والأعلى فى فقه جزم المضارع فى الآيات السابقة أنها فى جواب الأمر (قل)(١٢) وفى هذا اعراب عن أن هذه الأفعال واقعة من أصحابها عقيب

---

(١٠) همع الهوامع للسيوطى ٥٦/٢ ٠
(١١) شرح شواهد المغنى للسيوطى ٦٠٠/٢ - ٦٠١ ٠
(١٢) حاشية الدسوقى على السعد ٣٢٨/٢ (شروح التلخيص) التبيان فى اعراب القرآن للعكبرى ٦٨/٢ - ٦٩ ، معانى القرآن للفراء ٧٧/٢ ٠

القول لهم لا تتخلف عن القول ، فهم ليسوا فى حاجة الا الى مجرد القول لهم ، وفى هذا اعلاء لهم وثناء عليهم وحض لهم وحث على سرعة الالتزام وصـدقه ٠

اذا ما نظـرنا فى الآيات الآنفة ألفينـا أن الذين أمر النبى صـلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم انما هم من طائفة خاصة : (عبادى ، المؤمنين، المؤمنات ، أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وبناته ونساء المؤمنين ، الذين آمنوا) هؤلاء جميعا أهل لأن يكونوا فى ذلك المحل المعرب عن أن من هو قائم فيه ان قيل له أفعل كذا فعل ما قيل له وامتثل وأوقع المـأمور به على نحو ما أمر به وفور الأمر به ، ولذا تلحظ أن مقول القـول (قال) لم يذكر فى الآيات استغناء عن ذكره بذكر جواب الأمر اعرابا عن أنهما سواء وأن ما يوقعونه هو عين ما يؤمرون به ٠

كذلك نلحظ أن الأفعـال التى جاءت مجـزومة فى جواب الأمر فى الآيات السابقة انما هى من جلائل الأعمال التى بها قوام حياة الأمة على الجادة والتهاون فى شىء منهـا اما أن يكون فيه خرق علاقة بالله الخالق عز وعلا واما فيه ما يفسد حركة الحياة واستقامتها ٠

طبيعة ما يؤمر به وواقع من يؤمر بهما يقتضيان اصطفاء تلك الصـورة التى اخرج فيها معنى الأمر فأعربت عنه ، وفى هذا ورق ما سبق رسم للمنهج الأسمى فى التربية الممزوجة بالثناء الملهب للعزائم ، الحرض على التسليم والامتثال ٠

وليس من هذا الضرب قوله تعالى :

« ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » (الحجر /٣)

المضارع « يأكلوا » وما بعـده ليس جوابا للأمر « ذرهم » لأن الأكل لا يترتب وقوعه على تركهم فانهم يأكلون تركوا أم لم يتركوا ، فهو من باب حذف لام الأمر على سبيل التهكم والتوعد بدلالة « فسوف يعلمون» وهذا المعنى ليس مما يقوم هذا البحث له ٠

وكان يمكن « ابن مالك » أن يستدل بهذه الآية على حذف لام الأمر دون أن يسبق بقول أمر كما شرط « الكسائي » فليس بأمر قولي قوله « ذرهم » .

ويذهب « الكوفيون » الى أن صيغة « ليفعل » وما شاكلها من المضارع المقترن به « لام » الأمر الجازم انما هي أصل صيغ الأمر اذ الأمر معنى من المعاني وشأنها أن تفاد بالحروف ، كما في الاستفهام والنفي والنهي والتمني ... وقد أبى « البصريون » ذلك ودفعوه(١٣) .

وقد تعينت اللام للأمر في الذكـــر الحـكيم على قــراءة حفص في تسعة وسبعين موضعا بتكرار بعض الأفعال ، ومن خلال النظر فيما جاء منه في ضوء سياقه بدا لي أن أغلب هذه الصورة كان دالا على معنىالآمر المقتضى ايقاع ما لم يكن . وان ما كانت الصورة فيه لغير الدلالة الطلبية (حقيقة معنى الأمر) قليل(١٤) .

---

(١٣) الانصاف في مسائل الخلاف : ج ٢ ص ٥٢٤ (المسألة ٧٢)

(١٤) من هذا قوله تعالى : « فادعوهم فليستجيبوا لكم »(الأعراف/ ١٩٤) وقوله : « فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا » (التوبة /٨٢) وقوله « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (الكهف /٢٩) وقوله : «فليمدد له الرحمن مدا » (مريم /٧٥) وقوله « فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر ... » (الحج /١٥) وقوله : « فليرتقوا في الأسباب » (ص /١٠) وقوله : « هذا فليذوقوه حـميم وغســاق » (ص /٥٧) وقوله « وليـدع ربه اني أخاف أن يبدل دينكم » (غافر /٢٦) وقوله : « فليدع ناديه » (العلق /١٧) .

فهذه الصور لا تعرب عن معنى الأمر فبعضها للتعجيز أو التسوية أو التهديد أو الاخبار أو الاهانة ... الخ .

وقد جاءت « اللام » فى مواقع من الذكر الحكيم فاحتملت أن تكون « لام أمر » وأن تكون لغيرها(١٥) من قوله تعالى :

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » (البقرة /١٨٥) ٠

ذهب بعض أهل العلم(١٦) الى أن اللام فى قوله « ولتكملوا » وما بعدها لام أمر ، ففى الآية أمر بصيام الشهر واكمال العدة والتكبير ٠

والجمهور على خلاف ذلك فهى تحتمل أن تكون زائدة فيكون قوله « ولتكملوا » معطوفا على « اليسر » أى يريد بكم اليسر ولأن تكملوا فهى كالتى فى قوله « ولكن يريد ليطهركم » (المائدة /٦)(١٧) ٠

وتحتمل أن تكون لام كى ، فاما أن تكون الواو عاطفة لها على علة مقدرة أى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ليسهل عليكم ولتكملوا العدة فحذف المعطوف عليه وهو كثير فى كلامهم كما يقول ابن الأنبارى(١٨) واما أن يكون قوله (لتكملوا) علة لمحذوف أى شرع تلك الأحكام لتكملوا ويكون قوله (لتكملوا) علة الأمر بمراعاة العدد ، وقوله (لتكبروا) علة الأمر بالقضاء والخروج من عهدة الفطر وقوله (ولعلكم تشكرون) علة الترخيص ، وهو نوع من اللف لطيف المسلك ، وهذا ما عليه أكثر المفسرين(١٩) وهو الأعلى لاتساق النظم عليه واحكامه ٠

---

(١٥) دراسات لأسلوب القرآن للشيخ عضيمة ق ١ ج ٢ ص ٧٠٥

(١٦) البحر المحيط ٤٣/٢ ، فتح القدير للشوكانى ١٨٣/١ ٠

(١٧) التبيان فى اعراب القرآن للعكبرى ٨٢/١ ، التحرير والتنوير ١٧٥/٢ ٠

(١٨) البيان فى غريب اعراب القرآن لابن الانبارى ١٤٥/١ ، والتبيان للعكبرى ٨٢/١ ٠

(١٩) الكشاف ٣٣٦/١ ـ ٣٣٧ ، ارشاد العقل السليم لأبى السعود ٢٠٠/١ ، روح المعانى للآلوسى ٦٢/٢ ، فتح القدير للشوكانى ١٨٣/١ الفتوحات الالهية ١٤٧/١ ٠

ومما احتمل أن تكون اللام فيه للأمر وأن تكون لغيره قوله تعالى :

« وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون »
(الأنعام /١٠٥) .

استظهر أبو حيان أن تكون اللام في (ليقولوا) لام الأمر ، ويؤيد ذلك القراءة بسكون « اللام » وأن المعنى عليه متمكن كأنه قيل ومثل ذلك نصرف الآيات وليقولوا هم ما يقولون ... فانه لا يحفل بهم ولا تلتفت الى قولهم وهو أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بهم (٢٠) فهو خارج عن حقيقة معنى الأمر الذى حققناه من قبل ، وهو مع ذلك ضعيف فان اللام من بعدها فى (ولنبينه) لام كى(٢١) فخير من ذلك أن تكون « اللام » لام العاقبة عطفت على علة محذوفة أى مثل ذلك التصريف نصرف الآيات لنلزمهم الحجة أو ليجحدوا وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون وغير خفى» ان الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا دارست ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل للتبيين شبه به فسيق مساقه »(٢٢) فشبه ترتب قولهم على التصريف بترتب العلة الغائية واستعير لهذا المعنى الحرف الموضوع للعلة على وجه الاستعارة التبعية كما يقول الطاهر بن عاشور(٢٣) ومن العلماء من لم يفرق بين اللام فى (ليقولوا) واللام فى (لنبينه) فجعلهما معا لام العلة حقيقة ، لأن نزول الآيات وتصريفها يكون لأمرين مرادين اضلال الاشقياء وهداية السعداء « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين » (البقرة /٢٦)(٢٤) والقول بأنها فى (ليقولوا) لام العلة أعلى فيه دلالة

---

(٢٠) البحر المحيط ١٩٨/٤ .

(٢١) عناية القاضى ١١٠/٤ ، ارشاد العقل السليم ١٧٠/٤ ، روح المعانى ٢٤٩/٧ .

(٢٢) الكشاف ٤٢/٢ .

(٢٣) التحرير والتنوير ٤٢٢/٧ .

(٢٤) التبيان للعكبرى ٢٥٦/١ ، عناية القاضى للشهاب ١١٠/٤ .

على عظيم جهالة وضلال الكافرين فان من تبصر هذا التصريف وحال النبي صلى الله عليه وسلم يعصمه من الزعم بأنه درس ذلك وتعلمه على أحد من البشر فان ذلك مما لا يكون بالتعلم ٠

ومما قيل فيه باحتمال اللام أن تكون للأمر وان تكون لغيره قوله تعالى « وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ٠٠٠ » (يونس /٨٨) ٠

فاللام فيه لام صيغة الأمر المراد به الدعاء « كقوله ربنا اطمس واشدد ، وذلك لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكررا ٠٠٠ ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات الا كفرا ٠٠٠ ولم يبق له مطمع فيهم وعلم بالتجربة وطول الصحبة انه لا يجىء منهم الا الغى والضلال ٠٠٠ أو علم ذلك بوحى من الله ٠٠٠ اشتد غضبه عليهم ٠٠٠ فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره »(٢٥) ٠

ولم يرتض « ابن المنير » القول بأنه دعاء بلفظ الأمر فقال : ان اللام هنا للتعليل فان موسى عليه السلام يخبر بأن الله أمرهم مما أمدهم استدراجا ليزدادوا اثما وضلالة ولكن الزمخشرى يذهب الى استحالة ذلك على الله لاعتقاده أن من الجور أن يملى لهم فى الضلالة ويعاقبهم عليها فذلك من اعتزاله الخفى(٢٦) وقد قال به من أهل السنة جماعة(٢٧)

وقيل ان اللام للعلة « ونقل ذلك عن نحاة البصرة : الخليل وسيبويه والاخفش واصحابهما ، ٠٠٠ فاللام موضوعة للتعليل مستعارة لمعنى الترتب والتعقيب الموضوع له فاء التعقيب على طريقة الاستعارة التبعية

---

(٢٥) الكشاف ٢/٢٥٠ ٠

(٢٦) الانصاف لابن المنير ٢/٢٥٠ (هامش الكشاف) ٠

(٢٧) انظر البحر المحيط ٥/١٨٦ ، عناية القاضى ٥/٥٥ ارشاد العقل السليم ٤/١٧٢ ، روح المعانى ١١/١٧٢ ٠

في متعلق معنى الحرف ، فشبه ترتب الشيء على شيء آخر ليس علة فيه بترتب المعلول على العلة للمبالغة في قوة الترتب حتى صار كأنه مقصود لمن ظهر عنده أثره ، فالمعنى انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فضلوا بذلك وأضلوا »(٢٨) وفي اللام آراء أخرى ضعيفة(٢٩) فاللام على القول بأنها للأمر ليست من الأمر الذي حققنا معناه من قبل .

ومما قيل فيه بذلك قوله تعالى :

« ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة » (ابرا هيم /٣٧) .

فالأظهر أن اللام في (ليقيموا) متعلق بقوله (اسكنت) وهي للتعليل ايماء الى أن الغرض من اسكانهم بواد غير ذي زرع انما هو اقامة الصلاة والتفرغ لها(٣٠) .

وذهب آخرون الى أن اللام للدعاء أي الأمر المراد به الدعاء لهم باقامة الصلاة(٣١) وهو خارج عن معنى الأمر الذي حققناه .

وكذلك قوله تعالى : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر اولوا الألباب » (ابراهيم /٥٢) .

فان اللام في (لينذروا) و (ليعلموا) و (ليذكر) لام التعليل وهو اما معطوف اي لينصحوا ولينذروا به(٣٢) فهو متعلق ببلاغ ، وأما أنه متعلق بمحذوف هو المعطوف تقديره ولينذروا به انزل أو تلي(٣٣) .

---

(٢٨) التحرير والتنوير ٢٦٨/١١ .

(٢٩) البحر المحيط ١٨٦/٥ ، التحرير والتنوير ٢١٨/١١ .

(٣٠) الكشاف ٣٨٠/٢ ، البيان في غريب اعراب القرآن لابن الانباري ٦٠/٢ .

(٣١) البحر المحيط ٤٣٢/٥ ، تفسير البيضاوي ٢٧٣/٥ (ومعه عناية القاضي) .

(٣٢) الكشاف ٣٨٥/٢ ، التبيان للعكبري ٧١/٢ .

(٣٣) التبيان للعكبري ٧١/٢ ، البيان لابن الانباري ٦٢/٢ .

ويحتمل أن تكون اللام للأمر ولكن يعكر عليه عطف قوله (وليذكر) وهو منصوب ولكن أبا حيان ذهب الى أن ذلك لا يخدشه اذ يكون وليذكر ليس معطوفاعلى الأمر بل يضمر له فعل يتعلق به(٣٤) وغير خفى أن فى ذلك تبتيرا للنظم وليس من ورائه لطيفة يستعذب ، بل ان فى جعل « اللام » فى المواضع الثلاثة للتعليل لطفا فانه معرب عن أن هذا الابلاغ للناس أقيم لانذارهم واعلامهم انما الههم اله واحد وتذكير أولى الألباب بما هو عظيم لا يذكره غيرهم ، فتلك فوائد ثلاث لهذا البلاغ هى الغاية والحكمة فى انزال الكتب تكميل بانذار واستكمال القوة الفطرية بالعلم واستصلاح القوة العملية بالتذكر(٣٥) .

ومن هذا قوله تعالى :

« واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين * ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون » (النحل /٢٤ - ٢٥) .

اللام فى قوله (ليحملوا) تحتمل أن تكون لام العلة أو لام الأمر على الأول المعنى ان عاقبة قولهم أساطير الأولين حملهم أوزارهم كاملة ومن أوزار من ضلوهم بقولهم هذا ، فالحمل ليس غرضا للقول وان كان القول سببا فيه(٣٦) فان فرقا بين ما هو غرض وما هو سبب .

والثانى أن اللام للأمر على معنى الحتم عليهم والصغار الموجب لهم(٣٨) فهو خارج عن معنى الأمر الذى حققناه أيضا ، والأول أعلى فان فيه دلالة بالغة التحذير من مقالة الضلال فانها عقبى السوء .

---

(٣٤) البحر المحيط ٤٤١/٥ .

(٣٥) أنوار التنزيل للبيضاوى ومعه حاشية الشهاب ٢٨٠/٥ .

(٣٦) الكشاف ٤٠٦/٢ ، التبيان للعكبرى ٧٩/٢ .

(٣٨) البحر المحيط ٤٨٤/٥ ، عناية القاضى للشهاب ٣٢٥/٥ .

وفى السورة نفسها قوله تعالى :

« وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون * ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » (النحل /٥٣ - ٥٥) ·

اللام فى (ليكفروا) تحتمل أن تكون لام العلة أو لام الأمر : والكفر هنا كفر النعمة بدلالة ما تعلق به (بما آتيناهم) وعبر خفى أن كفران النعمة ليس غرضا وباعثا على الاشراك « فان اشراكهم سابق على ذلك وقد استصحبوه عقب كشف الضر عنهم ولكن شبهت مقارنة عودهم الى الشرك بعد كشف الضر عنهم بمقارنة العلة الباعثة على عمل لذلك العمل ، ووجه الشبه مبادرتهم لكفر النعمة دون تريث ، فاستعير لهذه المقارنة لام التعليل ، وهى استعارة تبعية تمليحية تهكمية(٣٩) ·

وجوز الزمخشرى أن تكون « اللام » للأمر الوارد فى معنى الخذلان والتخلية(٤٠) فهو أيضا خارج عن معنى الأمر الذى حققناه ·

ومما احتمل أن تكون لامه لام أمر وان تكون غيرها قوله تعالى :

« فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون» (العنكبوت /٦٥ - ٦٦) ·

فى قوله (ليكفروا)وجهان الاول أنها لام كى واستظهره أبو حيان والمعنى أنهم اذا ركبوا فى الفلك وخافوا الغرق وانقطع رجاؤهم دعوا

---

(٣٩) التحرير والتنوير ١٧٩/١٤ ، وانظر الكشاف ٤١٤/٢،البحر المحيط ٤٠٢/٥ وتفسير البيضاوى وحاشية الشهاب ٣٤٠/٥ ، نظم الدرر للبقاعى ١٨٠/١١ ، ١٨١ ·

(٤٠) الكشاف ٤١٤/٢ ، وانظر البحر المحيط ٤٠٢/٥ ·

الله وحده مخلصين له الدين فلما استجاب لهم ونجاهم الى امر فاجئوا المعاوة الى الشرك لتاصله فيهم فكفروا بنعمة الله ، فكفران النعمة «مسبب عن الاشراك لأنهم لما بادروا الى شئون الاشراك فقد أخذوا يكفرون النعمة فاللام استعارة تبعية شبه المسبب بالعلة الباعثة فاستعير له حرف التعليل عوضا عن فاء التفريع »(٤١) .

والآخر انها لام الأمر والأمر هنا للتهديد والوعيد فهو كقوله (اعملوا ما شئتم) (فصلت)(٤٢) ويكون الوقف حينئذ على (يشركون) وقوله (ليكفروا) استفتاح آية وجملة معا . اما على أنها لام كي فالوقف على (آتيناهم) اذا كانت اللام فى (ليتمتعوا) للأمر وسوف يأتى

والقول بأن اللام فى (ليكفروا) فيه اعراب عن عظيم التهديد والغضب عليهم وابانة عن أن النكوص على العقبين من بعد الهدى واتخاذ المخادعة نهجا ومقابلة النعمة والاحسان بالكفران والاساءة انما هو الخسران المبين والختم الأعظم على القلوب .

ويؤيد القول بأن اللام هنا لام أمر تهديدى قراءة ابن كثير ونافع برواية قالون وعاصم برواية الأعشى والبرجمى عن أبى بكر وحمزة والكسائى وخلف (وليتمتعوا) بسكون اللام(٤٣) فان التسكين دليل على أنها ليست لام كي فى (ليتمتعوا) لأن التسكين « لا يجوز فى لام كى ، وانما كان ذلك لأن لام كي حذف بعدها أن بخلاف لام الأمر ، فلا يجوز أن تحذف حركتها لمكان الحذف »(٤٤) .

وعلى ذلك يكون قوله (ليتمتعوا) معطوفا على (ليكفروا) اذا ما كانت اللام فى كليهما لام كى أو لام الأمر ، فان جعلت اللام فى

---

(٤١) التحرير والتنوير ٢١/٣٣ ، الكشاف ٣/٢١٢ ، البحر المحيط ٧/١٥٩ .

(٤٢) الكشاف ٣/٢١٢ .

(٤٣) المبسوط فى القراءات العشر لابن مهران ص ٢٩١ .

(٤٤) البيان لابن الانبارى ٢/٢٤٧ .

(ليكفروا) لام كي وفي (ليتمتعوا) لام الأمر ولا سيما عند تسكينها ، فان (ليتمتعوا) لا يكون معطوفا على (ليكفروا) بل يكون معطوفا على جملة « فلما نجاهم الى البر »(٤٥) وهو من عطف جملة انشائية لفظا خبرية معنى على أخرى خبرية لفظا ومعنى وذلك أن الأمر التهديدى اخبار ، أو تكون الواو في (وليتمتعوا) عاطفة كلاما على كلام لا عاطفة فعل على فعل(٤٦) وقراءة ابن مسعود (فتمتعوا فسوف تعلمون) بالتاء فيهما أى قيل لهم تمتعوا فسوف تعلمون ، وكذا في مصحف أبي ابن كعب(٤٧) تؤيد أن اللام في) ليتمتعوا (لام أمر أو تفسر وجها من وجوه دلالتها ان قلنا انها قراءة تفسيرية وقراءة ابن مسعود تجعل آية سورة « العنكبوت » كآية سورة « الروم » قال تعالى :

« واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون ﴿ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » (الروم /٣٣ ـ ٣٤) .

فالقول في (ليكفروا) هنا كالقول فيه في سورة العنكبوت من احتمال أن تكون « اللام » لام كي أو لام أمر وهو امر تهديد كالذى في قوله (تمتعوا)(٤٨) .

ومن هذا الباب قوله تعالى :

« والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون ﴿ لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا

---

(٤٥) التحرير والتنوير ٣٣/٢١ .

(٤٦) البحر المحيط ١٥٩/٧ .

(٤٧) المرضع السابق .

(٤٨) ينظر : الكشاف ٢٢٢/٣ ، التبيان للعكبرى ١٩٦/٢ ، البحر المحيط ١٧٣/٧ ارشاد العقل السليم ٦٠/٧ ، روح المعاني ٤٢/٢١ ، الفتوحات الالهية ٣٩٣/٣ ، التحرير والتنوير ٩٨/١١ .

سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » (الزخرف /١٢ - ١٣)
اللام فى (لتستوا) تحتمل أن تكون لام (كى) وأن تكون لام أمر
أستظهر بعض أهل العلم أن اللام (لام كى) فالاستواء علة جعل
ما يركبون من الفلك والانعام ، ومن بيانيه لما الموصونة فى
(ما يركبون)(٤٩) ويذهب « ابن عطية » الى أن اللام (لام امر) ويكون
الوقف على قوله ما تركبون • وبدأ الجملة قوله (لتستوا) واستبعده
« أبو حيان » « من حيث استعمال أمر المخاطب بتاء الخطاب ، وهو من
القلة بحيث ينبغى أن لا يقاس عليه ، فالفصيح المستعمل (اضرب)
وقيل (لتضرب) بل نص النحويون على أنها لغة رديئة قليلة اذ لا تكاد
تحفظ الا قراءة شاذة (فبذلك فلتفرحوا) ••• الخ »(٥٠) فهو دفع له
لمخالفته معهود اللغة كما يزعم « أبو حيان » الا أن دعواه ان قراءة
« فلتفرحوا » بالتاء قراءة شاذة دعوى غير صحيحة ، وانها قراءة متواترة
قرأ بها يعقوب بن اسحاق فى رواية رويس محمد بن المتوكل ، وزيد بن
أحمد بن اسحاق (ابن أخى يعقوب) وهى قراءة عشرية(٥١) فالحكم
عليها بالشذوذ غير قويم ، وأبو حيان نفسه لم يحكم عليها بالشذوذ فى
سورة (يونس) بل ذكر أنها قراءة سيدنا عثمان وأبى بن كعب رأنس ،
وقراءة الحسن وأبو رجاء وابن هرمز وابن سيرين وأبى جعفر المدنى
والسلمى وقتادة والجحدرى وهلال بن يساف والأعمش وعمرو بن فائد
والعباس بن فضل الانصارى ورويت عن النبى صلى الله عليه وسلم(٥٢)
فكيف تكون من بعد ذلك شاذة الا ان ذهب الى أن غير السبعة شاذ ،
وذلك غير قويم •

---

(٤٩) البحر المحيط ٧/٨ ، روح المعانى ٦٧/٢٥ ، الفتوحات الالهية ٧٨/٤ •

(٥٠) البحر المحيط ٧/٨ •

(٥١) المبسوط لابن مهران ص ٢٠٠ •

(٥٢) البحر المحيط ١٧٢/٥ •

فان قلنا بأن اللام فيها لام أمر ، فليس موجب الأمر الايجاب أو الندب بل هو للامتنان ، فان في الاستواء معنى التمكن والاطمئنان ومعنى تسخير ما استوى عليه ، ويكون قوله « تذكروا » و « تقولوا » معطوفا عليه دالا على المعنى ، فكأنه قيل لتستوا ولتذكروا ولتقولوا .

وهو اذا ما كان الفعلان (تذكروا) و « تقولوا » أمرين فالمعنى فيهما لغير الامتنان فان من السنة المؤكدة ذكر النعمة والتسبيح عند الاستواء على ما يركب ، ولا بعد في عطف أمر حقيقي على أمر مفيد الامتنان .

فان كانت « اللام » في « لتستووا » لام (كي) فان في قوله « تذكروا » و « تقولوا » معنى الأمر المدلول عليه بلفظ الخبر ابلاغا في طلب الذكر والتسبيح .

مما مضى تبين لنا أن ما جاءت فيه « اللام » محتملة أن تكون لام الأمر وأن تكون غيرها كان الغالب فيها حين توجه على أنها لام أمر ان يكون الأمر على غير حقيقة معناه التي حققناها من قبل ، وما جاء عليه قليل كما في آية (البقرة /١٨٥) و (ابراهيم /٥٢) و (الزخرف /١٣)

* * *

(النوع الثاني) ما دل على معنى الأمر بصيغة الفعل المطلوب أو اسمه او ما ناب عنه دون اقتران بأداة خارجية من أدوات المعاني .

ويندرج تحت هذا ثلاث صور :

(الأولى) ما يصلح أن يطلب به الفعل من الفاعل المخاطب بحذف حرف المضارعة عند بعض أهل العلم ، وهو صيغة (افعل) بكسر الهمزة وسكون الفاء وما شاكلها ، وهذه الصيغة هي الاكثر استعمالا في لسان العربية ، وهي لأمر الفاعل المخاطب .

وجمهور اهل العلم على أن هذه الصيغة قائمة بنفسها غير متولدة من صيغة أخرى ، بينما يذهب « الكوفيون » الى أن هذه الصيغة (أفعل) أصلها (لتفعل) « الا أنهم لما كثر استعمال الامر للمواجهة في كلامهم ، وجرى على ألسنتهم اكثر من الغائب استثقلوا مجيء « اللام » فيه مع

كثرة الاستعمال . فحذفوها مع حرف المضارعة طلبا للتخفيف »(٥٣) وقد دفع « البصريون » ذلك ونقضوه(٥٤) .

ما يقوله « الكوفيون » بحث في طوار صيغة معنى الأمر ، وسعى الى جعل صيغ الأمر الصريح متولدة من صيغة واحدة تشاكلت من عنصرين: لام جازمة مكسورة ومضارع فيتولد معنى الطلب من تفاعلهما ، فاللام وحدها لا تدل عليه ، والمضارع بدونها غير موضوع له ، اذ هو موضوع لتقييد الحدث بالزمان المحتمل ، وكونه أمرا أو خبرا خارج عن مقصوده(٥٥).

واستغناء صيغة (افعل) عن اللام شبيه باستغناء أسماء الاستفهام، وهل عن اقترانها بهمزة الاستفهام .

يقول « سيبويه » في الهمزة : « انها حرف الاستفهام الذى لا يزول عنه الى غيره ، وليس للاستفهام فى الأصل غيره ، وانما تركوا الألف فى (من) و (متى) و (هل) ، ونحوهن حيث أمنوا الالتباس »(٥٦).

ومذهب « الكوفيين » في هذا قد يكون غير بعيد اذا ما علمنا أن القول بتطور بعض الصيغ ذات الدلالات المتقاربة والدائرة فى فلك واحد أمر ليس بالغريب فى العربية ، بل أن من علمائها من له شغف بالابحار في تاريخ الصيغ ومحاولة الوقوف على الصورة الأولى التى كانت عليها وما أصابها من تحول قد يقتضيه كثرة الاستعمال أو يقتضيه استشراف الى أفق دلالى أسمى و « سيبويه » اشار الى ان من سنة العرب فى البيان أن تعمد الى كلمتين مشتقتين من أصل واحد والمعنى العام فيهما واحد ويجعلون البناء مختلفا ، ليكون أحد البناءين مختصا به شيء دون الآخر،

---

(٥٣) الانصاف فى مسائل الخلاف لابن الانبارى ٢/٥٢٨ .

(٥٤) السابق ٢/٢٥٤ ، مغنى اللبيب ١٨٩/١، رصف المبانى ص٣٠٣

(٥٥) مغنى اللبيب ١/١٨٩ .

(٥٦) الكتاب [illegible] ٩٩/١ [illegible] تح/هارون

ليفرق بينهما على نحو ما نراه فى العدل والعديل ، اذ العديل ما عادلك من الناس ، والعدل لا يكون الا للمتاع ، ولكنهم فرقوا بين المبناءين ليفصلوا بين المتاع وغيره وكذلك بناء حصين وامرأة حصان ، وحجر رزين وامرأة رزان ، وهذا أكثر من أن يوصف فى كلام العرب (٥٧) ٠

فاذا كان اختلاف البناء هنا بين صنوين دالا على اختلاف فى المعنى السياقى دون أن يجعل كل بناء منهما أصلا برأسه فالخطب فى (افعل) و (لتفعل) أهون ، اذ الحذف والتضمين فى العربية سائغ وشائع ، ولا سيما حذف أداة ذات دلالة مختصة بها كهمزة الاستفهام ، ويقويه بقاء عملها معربا عن ملاحظتها دلالة ، كما يذهب اليه « الكوفيون » فى لام الأمر وحذفها من صيغة (افعل) ٠

القول بتطور صيغة (لتفعل) الى (أفعل) وشيوع الصورة الجديدة وقلة استعمال الأصل قول له وجه ولا سيما أن فيه ملاحظة أثر كثرة الاستعمال على تشكيل الصيغة على نحو جديد ٠

واذا ما كانت كثرة الاستعمال والحضور الأدائى فى لسان الأمة ذا تأثير فى تشكيل صورة المعنى على نحو آخر ، فان من وراء ذلك تأثيرا آخر فى طاقات هذه الصورة فى تشكيلها الجديد ، وفى هذا اثراء للمعجم الدلالى لاستعمال الصيغة وتمهيد مساقات جديدة تدرج عليها تلك الصورة واضافة عظيمة الى تصوير المعنى ٠

واذا ما نظرنا الى الواقع الحضورى فى الذكر الحكيم لصيغة (لتفعل) وصيغة (افعل) فان الأولى كما سبق ذكره من قبل قد بلغت تسعا وسبعين مرة بتكرار بعض الأفعال ، والصورة الثانية (افعل) وما شاكلها وافرة فى الذكر الحكيم فلم تخل سورة من سوره من أولها الى آخر سورة النازعات ٠

---

(٥٧) السابق ٢/١٠٢ ٠

وقد خلت ثماني عشرة سورة من قصار السور من هذه الصيغة (افعل) وهي سورة : عبس ، والتكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والبلد ، والشمس ، والليل ، والتين ، والقدر ، والبينة ، والزلزلة ، والعاديات ، والقارعة ، والتكاثر ، والعصر ، والهمزة ، والماعون ، والمسد •

واذا تأملنا صورة الأمر (لتفعل) وصورته (افعل) ألفينا أن دلالة (لتفعل) على حقيقة معنى الأمر التي سبق بيانها أكثر من دلالتها على غيرها • بينما دلالة (افعل) على غير حقيقة معنى الأمر كثيرة جدا بل متنوعة الدلالة وفي هذا ما قد يعرب عن أن صيغة (لتفعل) لما كانت هي الأصل في الوضع الأول وأقل استعمالا كانت أليط بحقيقة معنى الأمر بينما صيغة (أفعل) أقدر على أن تتسع لدلالات عديدة على لاحب مساقات متباينة، فكان فقه الدلالة البيانية لصيغة (أفعل) أصعب مراسا وأدعى الى طول مراجعة ونفاذ بصيرة في أغوار السياق المقالي والمقامي ، فان هذه المعاني السياقية لتلك الصيغة كثيرا ما تتداخل أو يستدعي بعضها بعضا مما يدخل المرء في اشكالية أنوعى بدقائق الوجوه الدلالية للصيغة •

(الثانية) اسم فعل الأمر :

اسم الفعل اسم ينوب عن الفعل معنى وعملا دون تأثر بعوامل الفعل وسواء كان مدلوله لفظ الفعل كما هو مذهب جمهور النحاة أو معنى الفعل كما هو ظاهر كلام سيبويه ومذهب الكوفيين(٥٨) فان العرب قد وضعته في بابين من أبواب الفعل : باب الأمر وباب الخبر ، وأكثر

---

(٥٨) ينظر خلاف أهل العلم في هذه المسألة في : شرح المفصل لابن يعيش ٤/٢٥ ، ٢٩ ، همع الهوامع للسيوطي ٢/١٠٥ ، شرح الكافية للرضي ٢/٦٧ ، الأشموني وحاشية الصبان ٣/١٩٤ ـ ١٩٥ ، شرح ابن عقيل وحاشية الخضري ٢/٨٦ •

ما تكون أسماء الأفعال في باب الأمر(٥٩) ٠

ووجه ذلك أن الأمر لا يكون الا بفعل فلما قويت الدلالة فيه على الفعل حسنت اقامة غير الفعل مقامه ، وليس كذلك الخبر . لأنه لا يختص بالفعل(٦٠) واقامة اسم الفعل مقام فعل الأمر آنس به دلالة من أن اسم الفعل يجمع في دلالته ثلاثة وجوه ٠

١ ـ المبالغة : أي الابلاغ في الدلالة على معنى الفعل الذي ناب منابه فان قولك (صه) أبلغ في الدلالة على طلب السكوت من قولك (اسكت) فانت تقوله في حال تأكيد تحقيق وقوع السكوت ممن تطلبه منه وانه مما لا ترخص في تحقيقه أو تراخى في الاستجابة له ٠

ومن المعهود في لغة العرب أنه اذا أريد بالفعل المبالغة في معناه أخرج عن معهود لفظه ، فيكون في العدول اللفظي اعراب عن المبالغة في معناه(٦١) ٠

والابلاغ في الدلالة عام في اسم الفعل سواء كان أمرا أو خبرا ، بل قد يحمل مع الابلاغ معنى التعجب في اسم الفعل الخبري كما هو في اسم الفعل (هيهات) فليس معناه (بعد) أو (بعد جدا) بل معناه ما أبعده ، وكأنه قد بلغ في البعد حدا أثار عجب المتكلم فصور ذلك وأبرزه في قوله هيهات ولذلك فسره ابن جني بقوله : بعد بعده(٦٢) على غرار جد جده ، وهو ما تراه باديا فيما حكاه القرآن الكريم عن الكافرين « أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون » (المؤمنون /٣٥ ـ ٣٦) ٠

ـ (٥٩) المقتصد لعبد القاهر ٦٥٩/١ ، المقرب لابن عصفور ص ١٤٦ ، الهمع ١٠٥/٢ ، الأصول لابن السراج ١٤١/١ ، الفوائد الضيائية للجامي ١١٢/٢ ٠

(٦٠) الخصائص لابن جني ٣٧/٣ ٠

(٦١) السابق ٤٦/٣ ٠

(٦٢) الخصائص لابن جني ٤٣/٣ ، شرح الكافية للرضي ٦٨/٢

ففيه اعراب عما استقر فى قلوبهم من استحالة الوقوع وبعده بعدا لا يتأتى تصوره . وفى هذا مناداة على مبلغ ما انتهى أليه الضلال فيهم وما أخـذ العمى من بصـائرهم ، فكان أقرب الحقائق الى تصور العقل أبعدها عندهم عنه .

٢ ـ الايجاز : فان من خصائص اسم الفعل أن يلزم صورة واحدة وان اختلف معموله نوعا وعددا فالمفرد وغيره سواء والمذكر وغيره سواء وليس الفعل على تلك الشاكلة ، فلزوم صورة واحدة ففيه من الايجـاز ما لا يخفى(٦٣) .

أضف الى ذلك أن اسم الفعل انما هو رمز جامع لمعانى كلمات كثيرة، فيقوم بتصوير ما يقوم به اسم الفعل وحده ، فقولك (دونك زيد) ليس معناه : « خذ زيدا » سواء بسواء بل هو قائم مقام قولك : دونك زيد فخذه فقد أمكنك » ففيه دلالة على القرب والتمكن وطلب الأخذ ، فمقام (خذ) غير مقام (دونك) فكان فى سم الفعل اختصـار آخر يرمى به الى « حصـول الفراغ منه بسرعة ليتبادر المـأمور الى الامتثال قبل أن يتباعد عنه زيد »(٦٤) .

واسم الفعل أيضـا قد يفيد بالتنوين معنى لا يكون معه بغير تنوين فقولك (صه) بدون تنوين غيره قولك (صه) بالتنوين ، فان فى تنوينه طلاقة الدلالة حيث انك تطلب سكوتا عن أى حديث ، وذلك بخلاف (صه) بدون التنوين ، فهو طلب سـكوت عن حديث معلوم(٦٥) ومثل هـذه الطاقات الدلالية الكامنة فى اسم الفعل لا تكون فى الفعل نفسـه نحو (اسكت) .

---

(٦٣) الخصائص لابن جنى ٣/٤٧ ، شرح المفصل لابن يعيش ٤/٢٥

(٦٤) شرح الكافية للرضى ٢/٦٨ .

(٦٥) شرح المفصل لابن يعيش ٤/٢٨ ، ٣٢ .

اسم الفعل يجمع الى الابلاغ فى الدلالة الايجاز فى العبارة ، وذلك أليق بفعل الأمر من الخبر ، اذ الأمر يصح حذفه من غير خلف عنه لشاهد حال أو اشارة ، كما أنك فاعله فى أسلوب التحذير والاغراء مثلا فكان قيام اسم الفعل مقام الأمر أولى وأكثر(٦٦) .

وجمهور أهل العلم على أن أسماء الفعل تلزم صورة واحدة ، اذ الضمير مستكن فيها لا يبرز ، فتبقى صورتها مع المثنى والجمع هى صورتها مع المفرد ، وصورتها مع المذكر هي صورتها مع المؤنث . فما كان كذلك التقت كلمة أهل العلم على أنه اسم فعل ، وما كان غير ذلك ودل على معنى الفعل فالجمهور على أنه فعل وليس باسم فعل وان عد بعض أهل العلم ما لم يلزم صورة واحدة من اسم الفعل لشدة شبهة بالفعل الذى جاء على صورة واحدة دالا على طلب الفعل فى القرآن الكريم :

هلم(٦٧) هيت ، هاؤم ، عليكم ، مكانكم .

فهذه الخمس تحمل ضميرا مستترا فى محل رفع ، وما يبدو من ضمير فى (عليكم) و (مكانكم) انما هو فى محل جر كما عليه الجمهور، بل ذهب « ابن بابشاذ » الى أنه حرف خطاب لا ضمير ، فلا محل له من الاعراب(٦٨) .

١ ، جاء قوله (هلم) فى موضعين من القرآن :

(أ) « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا ، فان شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » (الأنعام / ١٥٠) .

---

(٦٦) شرح المفصل لابن يعيش ٤/٢٩ .

(٦٧) الحجازيون يجعلونها اسم فعل فلا يبرز الضمير والتميميون يجعلونها فعل أمر فيصلون بها الضمائر (همع الهوامع ٢/١٠٧) ولم تأت قراءة عشرية على لغة تميم فكلها على لغة الحجاز .

(٦٨) همع الهوامع ٢/١٠٦ .

فى سياق سورة الانعام النازلة دفعة واحدة كما عليه جمهور أهل العلم ، وقد نصبت الى اثبات وحدانية الله ونبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مما اقتضى ابطال مذاهب الملحدين والمشركين وشبهاتهم وتلك هى القضية الرئيسة فيما تنزل به الوحى فى العهد المكى .

وفى ثنايا اقامة الدلائل الباهرة على الوحدانية والنبوة ودحض شبهاتهم عليهما أتى على افتراءاتهم ومزاعمهم فيما هو من خصائص الله الواحد من التحليل والتحريم ، اذ جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائهم . فما عينوه لشركائهم لا يصرفونه الى ما سواه فى زعمهم وما عينوه لله تعالى صرفوه لآلهتهم المزعومة ، ثم أتى على ما قاموا به من حجر بعض أنعامهم وتحريم ظهور بعضها ، وجعل ما فى بطون بعضها خالصة لذكورهم محرمه على أزواجهم وحرموا ما رزقهم الله افتراء عليه ، فبين لهم ما أحل الله لهم وما حرم عليهم ، وتوعدهم على الافتراء على الله كذبا ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بأخبارهم أنه لا يجد مما حرموا شيئا محرما فيما أوحى اليه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير او فسقا اهل لغير الله به، وبين لهم ما حرم على اليهود ببغيهم وتوعدهم وأبطل زعمهم أنه لو شاء الله ما أشركوا ولا حرموا شيئا مما حرموا ، فبكتهم وتحداهم ان يكون عندهم من علم ، فيخرجوه ، بل هو الباطل والكذب ولله وحده الحجة البالغة .

فى هذا المساق تحداهم أن يأتوا بمن يشهد لهم أن الله حرم ما زعموا أنه محرم . ولما كان السياق يقتضى الابلاغ فى دعوتهم احضار من يشهد لهم بذلك صرف البيان عنه بفعل الأمر المعهود (احضروا) الى اسم فعله (هلم) ليكون بما فيه من البلاغ فى الدعوة والتحدى والتبكيت وتبيان زيفهم وعجزهم وبهتانهم أنسا بالسياق وتناسقا مع ما أقيم له من دحض افتراءاتهم . فاسم الفعل (هلم) لا يحمل طلب احضار الشهداء بأن الله حرم ما زعموه حراما فحسب بل هو يجمع اليه الابلاغ فى هذا الطلب واعلان التحدى والمواجهة والتبكيت على أقدامهم على ما لا يقدم عليه عاقل

من الافتراء على الله ، وذلك كله هو الآنس بالسياق العام للسورة والسياق الخاص لهذه الآية ولا يستطيع فعل الأمر القيام بالاعراب عنه على النحو الذي أعرب عنه اسم فعل الأمر (هلم) .

وجاءت المواجهة بالاشهاد على ما زعموا في مقام التحليل والتحريم بطلبها باسم فعل الأمر (هلم شهداءكم) مناظرة المواجهة بالاشهاد فيمقام الوحدانية « قل لمن مافيالسموات والأرض قل لله ... » (الآيات) الى قوله « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير * وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير » (الأنعام /١٢ ـ ١٨) فطلب المواجهة بالاشهاد باسم استفهام « قل أي شيء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا اشهد قل انما هو اله واحد وانني بريء مما تشركون » ، وكان الابلاغ في طلب المواجهة بالاشهاد في مقام لتشريع،لأن الافتراء فيه أوسع مدى والوالجون فيه أكثر ، بل ان بعضا ممن يعتصمون من الافتراء في مقام الألوهية والوحدانية فيقرون بهما لله رب العالمين ليقتحمون الافتراء على الله في مقام التحليل والتحريم ، وتكاد طائفة من هذه الأمة تنازع الله عز وعلا في ذلك فتعطي نفسها ذلك الحق الالهي ، فكان الابلاغ في طلب المواجهة بالاشهاد في مقام التشريع الآتي من (اسم الفعل) آنس بالسياق من فعل الأمر .

(ب) وجاء (هلم) مرة أخرى في سورة الاحزاب :
« قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا » (الأحزاب /١٨) .

جاءت هذه الآية في مساق سورة الأحزاب ، واذا ما تبصرنا في أنساب معاني هذه السورة ألفينا أن آياتها انما يجمعها اصل تناسلت منه وتدور في فلكه :

انه معنى التشريف للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ذو رافدين :

* تشريف بدا في صورة دفع عنه وذب عن حرمانه وعن دعوته وامته ٠

* وتشريف بدا في تبيان خصوصياته وما فضل به ٠

وجاءت هذه الآية في مساق : الرافد الأول جاء الاعراب عن موقف المنافقين اذ جاءت الأحزاب من فوق المدينة ومن أسفل واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظن بالله الظنون فابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وبرغم من ذلك الهول الخارجي كان كيد المنافقين والذين في قلوبهم مرض أنكى وأشد «واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ٠٠ » الآيات (الأحزاب ١١ - ١٧) ويأتي قوله « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا » مصورا ما كان منهم وما يترصدهم من الوعيد ، فقول بعضهم لبعض في هذه الحالكة « هلم الينا » ابلاغ في طلب الاقبال اليهم والانصراف عن الوقوف في صفوف المدافعين عن المدينة ، ولما كان الحال عصيبا والمقام رهيبا والاعتراض عن المجاهدة حبيبا الى بعض النفوس والرغبة في التلاقي بعيدا عن ذلك الهول عظيمة جاء باسم فعل الأمر (هلم) ليعرب عما هو آخذ بنفوسهم ناشب في قلوبهم من حب الفتنة والرغبة في الخذلان ٠

وجاء الوعيد على ذلك في صورة تعدل في اعرابها عنه ما قام به اسم فعل الأمر من الاعراب عن حبهم الفتنة والخذلان ، فجاء قوله « قد يعلم الله المعوقين منكم ٠٠ » فهو اخبار يرمى الى حاق التهديد المرهب والوعيد المرعب ، فاخباره بعلمه أولئك المعوقين والقائلين انما هو اخبار بما هو مرصود لهم من صنوف العذاب والخذلان والمهانة ٠ وفي دخول « قد » على المضارع « يعلم » اعراب عن عظيم تحقيقه المقتضي عظيم تحقيق ما هو

مرتب عليه من الوعيد (٦٩) ٠

ففي العدول عن « قد علم الله المعوقين » الى ما عليه النظم ابلاغ في الاعراب عن تحقيق علم الله لهم يتناغى مع الاعراب عن ابلاغهم في صرف اخوانهم في النفاق عن مناصرة المسلمين والدفاع عن الدينة بقولهم (هلم الينا) سواء كانت « الواو » في (والقائلين) معربة عن تغاير ذوات أو تغاير صفات لذات واحدة ٠

---

(٦٩) جاءت (قد) في القرآن الكريم ثلاثا وأربعمائة مرة ٠ منها اثنتان وثمانون ومائة مرة مسبوقة باللام (لقد) وهي تدخل على الماضي فتكون حرف تحقيق ولا يكاد يفارقها وقد يضاف اليه وهي داخلة على الماضي التقريب من الحال مع التوقع أي يكون مصدره متوقعا لمن تخاطبه واقعا عن قريب ومنه قول المقيم الصلاة : « قد قامت الصلاة » والسياق معين على فهم ذلك واذا ما دخلت على المضارع ، فانها تأتي لمعان يحررها السياق ، فتكون للتقليل وللتوقع وللتحقيق وللتكثير ٠

فمن التحقيق قول الشاعر : عبيد بن الأبرص :

قد أترك القرن مصفرا أنامله   كأن أثوابه مجت بفرصاد

ومن التكثير قول الشاعر : امرئ القيس :

وقد اغتدي والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وهي لم تدخل على المضارع في القرآن الكريم الا سبع مرات كان المضارع فيها من مادة (علم) :

« قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون » (الأنعام /٣٣) ، « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » (الحجر /٩٧) « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر » (النحل /١٠٣) « قد يعلم الله المعوقين منكم » (الأحزاب /١٨) « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا » (النور/ ٦٣) ، « قد يعلم ما أنتم عليه » (النور /٦٤) ٠

راجع في قد : رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي ص ٤٥٥ ، مغني اللبيب لابن هشام ص ١٤٧ - ١٥٠ ، همع الهوامع ٢/٧٢ - ٧٣ البرهان للزركشي ٤/٣٠٥ - ٣٠٩ ٠

وتجمع (قد) فى (قد يعلم) الى تحقيق علم الله بهم وبفعالهم مايترتب عليه من تحقيق وعيده وتهديده له ، فليس الاخبار مصروفا الى مجرد الاعلام بمضمونه بل وبما هو مترتب عليه ، وهذا من سنن البيان القرآنى يعرب بالاخبار بعلم الله وقدرته عن عظيم تهديده ووعيده حينا ، وعن عظيم فضله ومثوبته واحسانه حينا آخر ٠

٢ ـ وجاء قوله (هيت) مرة واحدة فى الذكر الحكيم :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب ، وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظلمون» (يوسف/٢٣)

فى سورة يوسف جاءت هذه الآية وهى سورة ترمى الى تبيان الدلائل الباهرة والقاهرة على تنزل القرآن الكريم ووحيه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى تبنى على ما أسسته سورة يونس وسورة هود ٠ واذا ما كانت سورة « يونس » قد أعلنت التحدى بقوله تعالى : « وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ❋ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعو من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (يونس/٣٧ـ٣٨)

واذا ما كانت سورة « هود » قد أعلنت التحدى بقوله تعالى :

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (هود /١٣) فانه فى سورة يوسف قد أعلن التحدى وأقام الدلائل على أنه من عند رب العالمين بأن قص فيها قصة نبى من أنبياء الله تعالى على نحو لم يكن مثله من قبل وما يكون لأحد غيره تعالى أن يخبر عنه على ما جاء به ، ولذا صدرها بما لم يأت فى غيرها مثله : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » (يوسف /٣) وفى سياق أحداث هذه القصة وما وقع ليوسف من كيد اخوته وكيد امرأة العزيز جاء حديثه عن مراودتها له وتدبيرها الايقاع به واحتفالها باغرائه

وفتنته ، فاعرب عن حالها هذا بان أخبر عن مقالتها له بقوله « هيت لك »(٧٠) وهو اسم فعل أمر بعني بادر وأسرع ، وهو أبلغ في الدلالة على طلب الاسراع منهما فعدل عن فعل الأمر اليه ، ولما فيه من الدلالة على معنى التمكن كما سبق أن ذكرناه في معنى (دونك) ثانه ليس وزان قولك (خذ) في المعنى بل فيه ما ليس في (خذ) ، فيه اعراب عن القرب والتمكن والطلب والدعوة الى المبادرة الى الامتثال قبل فوات الفرصة ، فكأن في قوله (هيت لك) اعرابا عما دبرته ، واحتفلت له لتتمكن منه ولكن الله صرف عنه السوء انه من عباده المخلصين .

٣ ـ وجاء قوله « هاؤم » مرة واحدة في الذكر الحكيم :

« فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه » (الحاقة/ ١٩) جاءت في سياق سورة الحاقة المنصوبة لتبيان ما يكون يوم القيامة من فصل بين الخلائق وانجاء من آمن واهلاك من كفر وجاءت هذه الآية في صدر تبيان حال من آمن فأوتي كتابه بيمينه فيقول لمن حوله فرحا مسرورا « هاؤم اقرءوا كتابيه » وظاهر السياق أن قوله (هاؤم) وان كان اسم فعل طلبي ، فانه لا يراد به هنا حقيقة معنى الأمر على النحو الذي حققناه في صدر هذا البحث ، فهو الى اظهار المسرة والابتهاج أقرب . ولما كانت الفرحة بالنجاة عارمة والسرور بعظيم ما اكتسب بالغا أخرجه في صورة اسم فعل ليعرب بالعدول عن صيغة فعل الأمر عما أنعم به قلبه من حبور وسرور .

٤ ـ وجاء قوله « مكانكم » مرة واحدة في قوله تعالى :

« ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم ، وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون ، فكفى

---

(٧٠) في (هيت) قراءات عدة بعضها يبعدها عن أن تكون اسم فعل أمر راجع : المبسوط لابن مهران ص ٢٠٩ ، وابراز المعاني لأبي شامة ص ٥٣٣ ، العكبري : التبيان في اعراب القرآن جـ ٢ ص ٥١ .

بالله شهيدا بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين » (يونس /٢٨ - ٢٩) في سياق سورة يونس المنصوبة لاقامة الدلائل على تنزيل الكتاب الحكيم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم •

وفي مساق تبيان ما كان من الكافرين المعاندين الذين لا يرجون لقاء الله وما هو كائن لهم يوم القيامة مقرونا بما هو للذين أحسنوا وصدقوا بالكتاب ، في هذا المساق أخبر الله عز وعلا انه يحشرهم جميعا الذين احسنوا والذين كسبوا السيئات ثم يقول للذين اشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم :

قوله (مكانكم) في اصله ظرف أقيم مقام (الزموا) فصار اسم فعل أمر بمعناه ، وفيه ضمير مستتر في محل رفع والضمير البارز (أنتم) توكيد له ، والكاف والميم في موضع جر عند قوم وعند آخرين للخطاب لا موضع لها كالكاف في اياكم(٧١) وأمرهم بالملازمة حبس لهم لأجل ما وقع منهم من شرك ولذلك كان الأمر لهم ولشركائهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله وفي هذا الجمع بينهما اذلال لهم وتحقير وتهوين لما هو واقع بهم معا •

ولما كان السياق للابلاغ في طلب حبسهم في مكانهم فلا يقدرون على مزايلته بأنفسهم حتى يزايل بينهم كان الأنس بذلك طلب اللزوم باسم فعل الأمر المعرب عن ذلك الابلاغ بما فيه من عدول وصرف عن ظاهر اللفظ (فعل الأمر) فان في ذلك الصرف آية على المبالغة في المعنى وهو طلب اللزوم وجاء قوله من بعده « فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون » معربا عن هول الخسران الذى يلقاه المشركون « شركائهم الذين كانوا يعبدون من دون الله •

واذا ما كان معنى الأمر وحقيقته متحققا في قوله (مكانكم) اذ انه

---

(٧١) التبيان للعكبري ٢/ ٢٨ •

يكون يوم القيامة فانه يعرب أيضا عما فيه من وعيد وتهديد للذين أشركوا وشركائهم واهانة لهم جميعا ، واعراب الصيغة عن هذه المعاني مع دلالتها على معنى الأمر وحقيقته لا يخرج الصيغة (اسم فعل الأمر) عن عدها صورة من صور معنى الأمر .

٥ - وجاء قوله (عليكم) في أكثر من آية من الذكر الحكيم الا أنه كان في واحدة منها أقوى في باب اسم فعل الأمر وفيما عداها كان دخوله فيه موضع نظر :

ما كان قويا في عده اسم فعل أمر قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » (المائدة /١٠٥)

في سورة المائدة سورة الوفاء بالعقود وأعلى العقود وأحقها بالوفاء العقد مع الله بالايمان به وبما أوحى ، والوفاء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وفي مساق تبيان عناد الكافرين وتحسر المؤمنين عليهم جاء قوله « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » طالبا منهم ملازمة أمر أنفسهم واصلاحها من بعد قيامهم بما كانوا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وليس عليهم التحسر على عناد من عاند .

ولما كان لزوم المرء حال نفسه واصلاحها بعد قيامه بما فرض عليه أصلح له وبمجتمعه وأدخل في باب التسليم بما قضى به الله والوقوف عند ما شرع والاجتهاد فيما فيه صالح النفس كان طلب هذا اللزوم بالغا فأعرب عنه بالعدول عن فعل الأمر (الزموا أنفسكم) الى اسم فعل الأمر (عليكم أنفسكم) .

وهذا الذي قلنا انما هو على القراءة العشرية بنصب أنفسكم ، وحكى « الزمخشري » عن « نافع » أنه قرأ برفع أنفسكم (٧٢) وهي قراءة شاذة

---

(٧٢) الكشاف ١/٦٥٠ .

مشكلة تخرج على وجهين : الأول : أن عليكم فى موضع الخبر المقدم وأنفسكم مبتدأ مؤخر ، وما يزال معنى الطلب والاغراء باقيا الا أنه خرج من باب اسم فعل الأمر الى باب الخبر المراد به الأمر والآخر : أن «أنفسكم» توكيد للضمير المستكن فى عليكم ومفعول عليكم محذوف لدلالة المعنى عليه والتقدير عليكم أنتم أنفسكم صلاح حالكم وهدايتكم ، وتوكيد الضمير المستتر فى (عليكم) بالنفس من غير توكيد بضمير منفصل شاذ(٧٣) وعلى هذا الوجه ما يزال معنى الطلب باقيا .

ومما جاء فيه (عليكم) اسم فعل أمر مرجوحا قوله تعالى :

« والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم ، وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ان الله كان عليما حكيما » (النساء /٢٤) فى سورة النساء المنصوبة لتبيان الهدى فى بناء المجتمع الاسلامى الراسخ الشامخ جاءت هذه الآية ، وفى مساق تبيان ما حرم الله عز وعلا على المرء نكاحه .

بعد أن نهى عن نكاح ما نكح الآباء وما حرم بنسب او رضاع أو مصاهرة تحريما مؤبدا أو مؤقتا ذكر ما حرم لتعلق حق الآخرين به وهن المحصنات حلائل الآخرين ، بين أن ما مضى انما هو كتاب الله عليكم .

ولأهل العلم فى تأويل قوله : « كتاب الله عليكم » مذاهب : أعلاها أن قوله (كتاب) مصدر فعل محذوف أى (كتب) بدلالة قوله من قبل: (حرمت عليكم) أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره . الزموا كتاب الله، وعلى الاول (المصدرية) يكون (عليكم) متعلق بالفعل المقدر ، وعلى الثانى (المفعولية) يكون (عليكم) دالا على المحذوف أو متعلقا بمحذوف

---

(٧٣) البحر المحيط ٣٧/٤ ، حاشية الفتوحات الإلهية للجمل ٥٣٣/١ .

أى الزموا كتاب الله المفروض عليكم والوجه الأول أقوى وليس فيه اسم فعل أمر .

ومن الوجوه المرجوحة ما ذهب اليه الكوفيون من أن (كتاب) منصوب بعليكم لصحة تقدم معمول اسم فعل الأمر عندهم عليه ، وقد منعه الجمهور لضعف العامل (عليكم) فليس له فى التقديم تصرف(٧٤)

ومما هو مرجوح فى جعله اسم فعل أمر قوله (عليكم) فى قوله تعالى :

« ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم » (البقرة /١٥٨) .

يذهب بعض أهل العلم الى الوقف على (جناح) ويبتدأ بقوله (عليه أن يطوف بهما) أى يلزمه أن يطوف بهما لأن الطواف واجب وخبر (لا) محذوف أى فلا جناح فى الحج.

هذا الوجه ضعيف جدا لتبتيره النص دونما مقتض للقول بالوقف على جناح ، يضاف اليه أن جعل (عليه) اسم فعل أمر ضعيف لأنه انما يكون مع الخطاب لا مع الغيبة وحكى من نحو « عليه رجلا ليسنى » فانه شاذ لا يقاس عليه ، فكيف يخرج عليه القرآن ؟

وكذلك تقدير خبر (لا) متهافت لا يتناغى مع النظم القرآني فأى دلالة فى قولنا فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح فى الحج) ؟

القول بالوقف على (جناح) جد شاحب . وليس فى الآية اسم فعل

---

(٧٤) التبيان للعكبرى ١٧٤/١ - ١٧٥ ، الأصول لابن السراج ، شرح الكافية للرضى ٦٨/٢ ، المقرب لابن عصفور ص ١٥١ ، الانصاف فى مسائل الخلاف ٢٢٨/١ ، المقتصد ٥٧٧/١ .

أمر (وعليكم) متعلق بخبر (لا)(٧٥) ٠

ومما هو مرجوح أيضا جعل (عليكم) اسم فعل أمر في قوله تعالى:

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا » (الأنعام /١٥١) ٠

وذلك بناء على الوقف على قوله (ربكم) والابتداء بقوله (عليكم) فيكون قوله (ألا تشركوا) معمولا لاسم الفعل (عليكم) فتكون (لا) نافية أى عليكم عدم الشرك به و (أن) مصدرية (٧٦) ٠

وهذا الوجه مرجوح فالأعلى الوقف على « وبالوالدين احسانا »(٧٧) وعليكم متعلق بقوله (حرم) « وقيل بأتل ، والأول أنسب بمقام الاعتناء بايجاب الانتهاء عن المحرمات المذكورة ، وهو السر في التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرهم ، فان تذكير كونه تعالى ربا لهم ومالكا لأمرهم على الاطلاق من أقوى الدواعي الى انتهائهم عما نهوا عنه أشد انتهاء »(٧٨) ٠

فدعوى الوقف على قوله (ربكم) شاحبة لا تليق بجلال النظم القرآني وليس كل ما احتملته أعراف النحو في لسان العربية يمكن حمل النظم القرآني عليه فضلا عن أنه لا ضرورة تحمل على اقتحام مثل ذلك التكلف ومن النصح لكتاب الله حمله على ما هو أهيأ وأهدى وأتقى وانقى واسلم من التكلف ٠

ما مضى بيان مواقع الكلمات التي ذهب جمهور اهل العلم الى مجيئها

---

(٧٥) التبيان للعكبري ١/٧٠ ٠

(٧٦) السابق ١/٢٦٥ ٠

(٧٧) المكتفى في الوقف والابتداء لأبي عمرو الداني ت / جايد مخلف ص ١٨٠ طبعة العراق ـ وزارة الأوقاف سنة ١٩٧٤م ٠

(٧٨) تفسير أبي السعود ٣/١٩٨ ٠

(صورة)

اسم فعل أمر فى لسان العربية وفي بيان القرآن • ونم كلمات لم يقل جمهور أهل العلم بمجيئها اسم فعل أمر • والقائلون بذلك قليل •

من ذلك قوله (تعـال) و (هـاتوا) و (ورأنكم) و (لزام) و (مساس) فهذه الكلمات قيل فيها انها من باب اسم فعل الأمر

أما قوله (تعالى) فقد جاء في القرآن مسـندا الى واو الجماعة سبع مرات والى نون النسوة (تعالين) مرة واحدة(٧٩) •

وجمهور أهل العلم على أنه لما برز فيه الضمير الواقع فى محل رفع به ، ولم يلزم حالة واحدة كان فعل أمر وليس اسم فعل أمر (٨٠) •

وقيل ان أصـله طلب الاقبال من مكان مرتفع ثم أطلق فاستعمل فى مجـرد طلب المجىء الى كل مكان ، فيقوله من هو فى منخفض لمن هو فى مرتفع ، وكأنه ما يزال يلحظ فيه العلو المعنوى وهو ارتفاع المنزلة . فكأن الداعى به انما يدعو الى ما فيه رفعة(٨١) •

ومثل هذا التحول الدلالى لا يتبعه تحول الكلمة من الفعلية الى باب اسم الفعل ، لأن الفارق الرئيس بين الفعل واسـم الفعل أن اسم الفعل لا يبرز معه ضـمير ولا يتقـدم معموله عليـه ، وكذلك لا يضـمر عنـد الجمهور(٨٢) وعنصر المفارقة الأول مفقود فى مواقع (تعال) فى الذكر

---

(٧٩) جاء فى سورة آل عمران ى/٦١ ، ٦٤ ، ١٦٧ ، وفى سـورة النساء ى/٦١ ، وفى سورة المـائدة ى/١٠٤ ، وفى سورة الأنعام ى/١٥١ وفى سورة المنافقون ى/٥ ، وهو فيها اسند الى واو الجماعة وجاء فى سورة الأحزاب ى/٢٨ مسندا الى نون النسوة •

(٨٠) همع الهوامع ٢/١٠٥ وانظـر الكشـاف ١/٤٢٣ ، تفسـير أبى السعود ٣/١٩٧ •

(٨١) المفردات للراغب (مادة علو) ص ٣٤٦ ، الفتوحات الالهية للجمل ١/٢٨٢ •

(٨٢) همع الهوامع ٢/١٠٥ •

الحكيم ، فقد برز الضمير فيها جميعا ، ولم تلزم حالة واحدة فالقول بأنها أفعال هو الأعلى .

وكذلك الفعل (هات) جاء في القرآن الكريم في أربعة مواضع(٨٣) وقد جاء فيها الضمير بارزا « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (البقرة/ ١١١) قيل ان أصل « هات » « آت » قلبت الهمزة هاء(٨٤) وهذا الفعل لم يقع في الذكر الحكيم الا متعديا الى « البرهان » وهو في مواقعه كلها فيه خارج عن حقيقة معنى الأمر التي بيناها من قبل ، فهو فيها يعرب عن التبكيت والتعجيز .

فالزعم أنه اسم فعل أمر بمعنى (احضروا) برز فيه الضمير لقوة شبهه بالفعل ، وهذا الضمير البارز مؤكد للمستتر المرفوع به انما هو زعم شاحب(٨٥) .

أما كلمة (وراء) فقد جاءت في الذكر الحكيم في أربعة وعشرين موقعا لم يقل أنها اسم فعل أمر الا في قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم، فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » (الحديد /١٣) .

فقد ذهب بعض أهل العلم الى أن قوله (وراءكم) اسم فعل فيه ضمير الفاعل أي ارجعوا ارجعوا ، وليس بمعروف « كذا »(٨٦) لقلة فائدته ،

---

(٨٣) جاء في سورة البقرة ى/١١١ ، الأنبياء ى/٢٤ النمل ى/٦٤ والقصص ى/٧٥ .

(٨٤) شرح المفصل لابن يعيش ٤/٣٠ ، تفسير ابي السعود ١/١٤٧

(٨٥) شرح المفصل لابن يعيش ٤/٣٠ .

(٨٦) هو كذلك في التبيان في اعراب القرآن للعكبري طبعة (١)

لأن الرجوع لا يكون الا الى وراء(٨٧) والقول بقلة الفائدة من جعله ظرفا معمولا لقوله (ارجعوا) غير قويم لأمرين :

* أن قوله «لأن الرجوع لا يكون الا الى ورا » لايستدل به ، لقوله تعالى « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم » (الأنعام ٣٨) فالطيران لا يكون الا بجناحين ، وكذلك لقوله تعالى : « يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » (الفتح /١١) فان القول لا يكون الا باللسان ، وكذلك لقوله تعالى : «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله » (البقرة /٧٩ فان الكتابة لا تكون الاباليد،

* أن الأليق بالسياق وبما هو مأثور عن أهل العلم من السلف وعن السنة أن المعنى ارجعوه الى الموقف الذى كنتم فيه حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنا ، وهو تبكيت وتحسير خارج عن حقيقة معنى الأمر قال ابن عباس : أى من حيث جئتم من الظلمة أو الى المكان الذى قسم فيه النور ٠

وأخرج ابن جرير وبن مردويه والبيهقى فى البعث عن ابن عباس :

قال : بينما الناس فى ظلمة اذ بعث الله نورا ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلهم من الله الى الجنة فلما رأى

=

سنة ١٣٩٩ ـ المكتبة التوفيقية القاهرة ج ٢ ص ٢٥٥ ، وكذلك فيه على هامش الفتوحات الالهية للجمل طبعة عيسى الحلبى ج ٤ ص ٣٨٤ ـ ولكن فيما نقله الجمل فى حاشيته تصويب لقوله (معروف) نقله عن السمين : « ومنع أن يكون ظرفا لارجعوا قال لقلة فائدته ، لأن الرجوع لا يكون الا الى وراء » ج ٤ ص ٢٨٩ ، فالصواب أن يقال وليس بظرف لقلة الفائدة ٠

(٨٧) التبيان للعكبرى ٢/٢٥٥ ٠

المنافقون المؤمنين قد انطلقوا الى النور تبعوهم فأظام الله على المنافقين فقالوا حينئذ : أنظرونا نقتبس من نوركم ، فانا كنا معكم فى الدنيا ، قال المؤمنون : ارجعوا وراءكم من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور(٨٨) ٠

ومثل هذا لا يقال بالرأى لأنه من غيهب الغيب ، وانزال المعاني على ما جاءت به السنة وما ورد عن سلف الأمة هو الأعلى والأهدى فدعوى « العكبرى » عدم الفائدة فى ظرفية (وراءكم) غير قويمة ولعله لم يطلع على ما ورد عن السلف ٠

أما قوله (لزاما) فقد وقع فى القرآن الكريم مرتين : فى سورة طه (ى/١٢٩) ولا كلام فيها وسورة الفرقان قال بعض أهل العلم فى قوله تعالى :

« قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » (الفرقان /٧٧) ٠

انه على قراءة فتح اللام وكسر الميم على وزان (نزال) اسم فعل امر بمعنى الزم أى فسوف يكون قول (نزام) أى الزموا ٠

وهذه قراءة غير عشرية نقلها ابن خالويه عن أبى السماك(٨٩) ومن البين ان ما كان على وزان (نزال) انما هو قياسى ، الا أن المعنى عنيه فى الآية ليس الأجلى والأعلى ، وانما الأعلى أنه خبر ليكون والمعنى فسوف يكون جزاء هذا التكذيب عند انقضاء ما ضربه لكم من آجال ٠٠٠ لزاما أى لازما لكم لزوما عظيما لا انفكاك له عنكم بحال (٩٠) ٠

---

(٨٨) ينظر : فتح القدير للشوكانى ١٧١/٥ . تفسير ابن كثير ٣٠٨/٤ ـ ٣٠٩ روح المعانى للألوسى ١٧٦/٢٧ ٠

(٨٩) البحر المحيط ٥١٨/٦ ، روح المعانى ٦٥/٢١ ٠

(٩٠) نظم الدرر للبقاعى ٤٣٩/١٣ (بتصرف) ٠

أما قوله (مساس) فقد ورد فى قوله تعالى :

« قال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس » (طه/٩٧)

قرأ الحسن وأبو حيوة وابن أبى عبلة وقعنب (مساس) بفتح الميم وكسر السين على وزان (نزال)(٩١) وهى قراءة غير عشرية ومن البين ان هذا يحتمل واحدا من وجهين :

الأول : انه معدول عن مصدر كفجار ونحوه والمصدر هنا (المسة) كمعدول فجار عن المصدر (الفجرة) وهو على هذا الوجه ليس من اسم الفعل فى شيء . ذلك ما ذهب اليه الزمخشرى .

والآخر : انه معدول عن فعل أمر (امسس) كما فى نزال ودراك ، فهو من اسم فعل الأمر(٩٢) .

والوجه الأول هو الأعلى فى توجيه هذه القراءة غير العشرية فتكون (لا) نافية للجنس(٩٣) فيخرج عما نحن فيه من دلالة اسم الفعل على الأمر الى باب الخبر المنفى المراد به النهى ، فكأنه قيل : أن تقول لا تمسسنى ، وهذا الوجه هو المتناغى مع القراءة العشرية (مساس) بكسر الميم وفتح السين مصدر ماس كقتال من قاتل ، فالذهاب اليه هو الأهدى فى فقه المعنى .

(الثالثة) المصدر النائب عن فعل الأمر :

ينوب المصدر عن فعله ، كما فى « سقيا زيدا » فيكون الناصب « زيدا » هو المصدر عند جمهور أهل العلم ، لأن المصدر صار بدلا من الفعل (اسق) فورث عنه عمله ، وصار الفعل نسيا منسيا ، وعلى ذلك يكون الدال على طلب السقى هو المصدر النائب عن فعله .

---

(٩١) البحر المحيط ٢٧٥/٦ .

(٩٢) الكشاف ٥٥١/٢ ، وانظر البحر المحيط ٢٧٥/٦ .

(٩٣) التبيان فى اعراب القرآن للعكبرى ١٢٦/٢ .

ويذهب جماعة الى أن الناصب للمفعول به « رويدا » انما هو الفعل المحذوف وجمهور البلاغيين المتأخرين لم ينصوا على المصدر فى باب الأمر(٩٤) وكأنى بهم لا يرون فيه دلالة على الطلب بنفسه بل بفعله المحذوف .

وتصوير معنى الأمر فى صورة المصدر جاء فى الذكر الحكيم غير أن حصر صوره فيه عسيرة لأن بعض هذه الصور باب الاحتمال فيها فسيح من هذا قوله تعالى :

« فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان » (البقرة /١٧٨) فسياق الآية الترغيب فى المصالحة عن الدماء(٩٥) وذلك أمر عظيم لا تكاد تذل النفس العربية اليه سريعا ومعالجتها له جد عظيمة فلا تكون صيغة الأمر (افعل) أو (لتفعل) قائمة فيه بما يراد فعدل عن قولنا : فمن عفى له من أخيه شيء فليتبعه بالمعروف وليؤد اليه باحسان ، الى ما جاء عليه النظم من اقامة المصدر (اتباع) و (أداء) مقام فعلى الأمر ، فان فى هذا العدول الى المصدر ورفعه دلالة على الثبات ولتحقيق تحريضا على ايقاع الاتباع والأداء على النحو الأمثل

واصطفاء كلمة (أخيه) والمراد به القاتل على معنى فمن أعطى العفو والميسور من أخيه لقاتل فليقبله فى هذا الاصطفاء أعراب عن ما بين القاتل والمقتول ووليه من رابطة أخوة الاسلام وهذا أدعى الى الاقبال على المصالحة ، وكذلك اصطفاء كلمة (عفى) المعربة عن مراعاة التيسير والمسامحة من قبل ولى المقتول ، وكذلك قوله (شيء) وتنكيره كل ذلك فيه ما يتناغى مع الترغيب فى المصالحة .

---

(٩٤) المفتاح/١٥٢ بغية الايضاح ٥٣/٢ ، المطول /٢٤٠ ، ومواهب الفتاح ٣١١/٢ ، عروس الأفراح ٣٠٩/٢ ، الاشارات والتنبيهات لمحمد بن على الجرجانى /١١٦ .

(٩٥) التحرير والتنوير ١٤١/٢ .

وهكذا ترى السياق والسباق داعيان الى اصطفاء المصدر النائب عن فعل الأمر في (اتبـاع) و (أداء) ورفعهمـا تأكيدا لمعنى الثبات والتحقيق لما تدعو اليه الآية من قبول ولى المقتول ما تيسير من القاتل ومن حرص القاتل على بذل ما في طوقه باحسان ٠

ومن هذا الضرب قوله تعالى :

« الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » (البقرة/ ٢٢٩) جاءت هذه الآية في معرض تحرير ما للرجل من حق وما عليه من واجب فلا افراط ولا تفريط ٠ كان من حق الرجل أن يطلق وأن يراجع وكان ذلك في الجاهلية ممدودا غير محدود بحد حتى وان بلغ الطلاق والرجعة في العدة ألفا(٩٦) وفي هذا اعتداء وظلم لا تستقيم معه حركة الحياة على هذه الأرض ، فجاءت الآية تحد الطلاق الرجعي ، فللرجل أن يراجع في العدة مرتين ٠ ومن ثم جاء قوله « فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » ومن وجوه المعنى في هذا أن هذين المصدرين نائبان عن فعليهما. أى فليمسك بمعروف أو فليسرح باحسان ، وعدل عن النصب الى الرفع في المصدرين لتحقيق معنى المطلوب على الوجه الأمثل الأكمل ، أى فان اختار الامساك ، فليكن على الوجه الأعلى وان اختار التسريح ، فليكن باحسان ، لأن وقوع الطلاق ذو أثر بالغ في نفس الزوجة ، فاذا اتبعه امساك بمعروف أو تسريح باحسان أزال ذلك ما كان من أثر الطلاق ، وكلما بولغ في تحقيق الامساك بالمعروف أو التسريح باحسان كلما كان ذلك أشفى وأجدى ٠

---

(٩٦) روى الامام مالك في الموطأ عن هشام بن عروة عن أبيه حديثا في هذا المعنى ٠ راجع الموطأ كتاب جامع الطلاق حديث رقم ١٢٨٢ جـ ٣ ص ٢١٨ (شرح الزرقاني) ٠

ومنه قوله تعالى :

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا الى الحول غير اخراج » (لبقرة /٢٤٠) .

فان من وجوه المعنى على قراءة الرفع فى (وصية) وهى قراءة نافع وابن كثير والكسائى وأبى بكر عن عاصم وأبى جعفر ويعقوب وخلف(٩٧) أنه مصدر نائب عن فعل أمر أى فليوصوا لأزواجهم وعدل عن النصب الى الرفع ابلاغا فى طلب التحقيق والدوام أما على قراءة النصب فيه وفى قوله (متاعا) فوجه نيابة لمصدر عن فعل الأمر باقية وان ذهب ما يعرب عن الرفع وكل قراءة تصور وجها من وجوه الدلالة ، فليس الناس سواء فى الوصية لأزواجهم فمنهم من يسعى الى التحقيق والالزام فله الرفع ومنهم من يوقع الوصية على وجه ما فله النصب .

وهذه الآية جمهور أهل العلم على أنها منسوخة حكما بقوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ، فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ، والله بما تعملون خبير » (البقرة /٢٣٤)(٩٨) .

ولسنا هنا بصدد النظر فى علائق معانى الآيات وأسبابها ومقامها فى بناء المعنى القرآنى فى السورة ، بل نحن الى النظر فى صورة معنى الأمر فى الآية . ومن ذلك قوله تعالى :

---

(٩٧) المبسوط لابن مهران ص ١٣١ .

(٩٨) راجع : الناسخ والمنسوخ للنحاس ـ ت/ الدكتور سفيان اسماعيل ص ٨٧ ، معرفة الناسخ والمنسوخ لابن حزم ص ٣٢٥ ، على هامش تنوير المقياس (ط / مصطفى الحلبى سنة ١٢٧٠) ، أحكام القرآن لابن العربى ٢٠٧/١ ، أحكام القرآن للكيا الهراسى ٢٨٠/١ .

« وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون » (البقرة / ٢٨٠)

جاءت هذه الآية في مساق الهدى في أمر الربا وأثره وما يجب ان يكون في معالجة ماهو كائن زمن التشريع ـ ومثله زمن الانابة والتوبة. « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »

فانذر من نفر عن هديه وجمح وهدى من تاب وأناب بأن له رأس ماله لا غيره ، لا يظلم ولا يظلم .

ولما كان اقتضاء التائب رأس ماله ممن هو عنده قد يكون معه عسر من أخذ هدى الى ما فيه توثيق عروة الأخوة وتمكين التوبة في قلب صاحب المال وتطهيره مما أغرقه من رجس الربا وظلمه . فأعرب عن أن المدين ان كان معسرا فلينظره صاحب المال الى ميسرة بل يرقى من الانظار الى الميسرة الى الولوج الى رحاب أعظم : رحاب التصدق عليه بما عجز عنه فجاء هديه الى الانظار في صورة المصدر المعدول به عن فعله الأمرى وعن نصبه على المصدرية الى رفعه على الابتداء أي فنظرة للمعسر الى ميسرة .

وفي هذا العدول عن الفعل الى المصدر وعن النصب الى الرفع ابلاغ في طلب تحقيق الانظار على النحو الأرفع والاقدر على تطهير صاحب المال مما كان غارقا فيه من ظلمات الربا ودياجيره ورجسه وركسه ، فان عظم الداء وطوله أمده أحوج الى عظم الدواء وكماله . وفي هذا اعراب أيضا عن أن المطلوب تحقيق انظار هو أعون للمعسر على ان تستمر حركته وان يتحرر من ربقة الحاجة ومذلة الدين وقهر العجز فاذا انظر انظارا حسنا أطلق حركته وشحذ عزيمته ، فسعى وآمن أن في الأمة روح التراحم والتكافل فكان خيرا له ولصاحب الدين وللأمة .

وفى بيان هذه الآية تعميما وتخصيصا مقال لأهل العلم : ذهب قوم الى أن الآية خاصة بمعسر الربا دون غيره من معسرى الديون الاخرى ، فالمعنى وان كان المدين بالربا معسرا فلينظره صاحب المال الى ميسرة وهذا يتناسق مع السياق الخاص ، فهو مساق ربا ، ويتناسق مع قراءة (ذا عسرة) بالنصب على أنه خبر (كان) الناسخة وهذا الوجه مروى عن شريح ونسب الى ابن عباس .

وذهب الحسن وابراهيم والربيع الى أن ذلك غير خاص بمعسر الربا بل هو فى كل معسر وهو ما يتناسق مع قراءة الرفع فى (ذوعسرة) على أن كان تامة أى ان وجد أو ناقصة والخبر محذوف تقديره وان كان ذو عسرة لكم عليه حق أو نحو ذلك ، فتكون الآية وسياقها مما أوله خاص وآخره عام وهو مذهب فى لسان العربية وبيان الذكر الحكيم(٩٩) .

والقول بعموم الآية على لاحب مساق خاص أهدى وأعرب ، فيه من الهدى ان ما كان السياق له وهو معسر الربا أولى بالانظار حتى يكون ما فى انظاره من تكفير ما أوقع عليه من ظلم بقصد وجه الله عز وعلا بانظاره مقابلا ما فى ظلمه من قبل بدفعه الى سد حاجاته وضروراته بدين ربوى محيق .

وفى العموم هدى الى أن الانظار لكل معسر أولى بمن تاب وأناب فعلى قدر ما دفع الاغنياء بامتناعهم عن الزكاة والصدقة اخوانهم الفقراء الى مذلة الدين وقهر الاعسار يكون انظارهم وتفريج كربهم .

والآيتان بالمصدر (نظره) ورفعه يتناغى مع البناء الكلى للآية وللسياق الخاص الذى أقيمت فيه وللسياق العام للسورة ، ومما يعنى ذلك التناغى ما تراه فى قراءة نافع (ميسرة) بضم السين وفى قراءة

---

(٩٩) أحكام القرآن لابن العربى ١/٢٤٥ ، أحكام القرآن لالكياالهراس ١/٣٦١ ، فتح القدير للشوكانى ١/٢٩٨ ، التبيان للعكبرى ١/١١٧ .

الجمهور بفتح السين(١٠٠) فالرفع فيه اعراب عن الدعوة الى أن ينظر الى ميسرة قوية ظاهرة قوة صوت الضمة وظهوره ، فهى أقوى الأصوات اللينة (الصائتة الطويلة) وفى الفتح اعراب عن الدعوة الى انظاره الى اتساع يسره بما يكفى حاجته أولا ثم ما يقضى دينه ، فلا يليق استيفاء الدين مما اكتسبت يده دون ابقاء له ما يعصمه من التردى فى عائلة الدين مرة أخرى ، فالرفع دعوة الى ملاحظة تمكنه فى باب الميسرة والفتح دعوة الى ملاحظة اتساع حاله ، لما فى صوت الفتحة من الفسحة ، وهذه المعانى الاحسانية الملحوظة تتناغى مع الدعوة الصريحة الى تسنم درج التصدق بالدين (وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) فتلك دعوة تدفع التائب عن استغلال عوز أخيه الى أن يتحرر من طاغوت المال الذى أنساه حق الاخوة فى الله ، فيتصدق به ٠

وجاءت الابانة عن ذلك بالمصدر المؤول من (ان) والمضارع للاعراب عن أن ذلك خير فى كل صوره ودرجاته ، فالفعل تتعدد درجات ايقاعه ، فأى وجه من وجوه التصدق خير من الانظار الى ميسرة ٠

وجاءت القراءات فى (تصدوا) متناغية مع هذا الترقى فى درجات الهدى : قرأ عاصم وحده « وان تصدقوا » خفيفة الصاد وقرأ الباقون (تصدقوا) مشددة الصاد(١٠١) ٠

فى التخفيف اعراب عن أدنى درجات التصدق ، وفى التشديد ابانة عن الابلاغ فيه ، وهو ما يتناسق مع حال أصحاب الدين وتفاوتهم ٠

وفى قوله (ان كنتم تعلون) الهاب وحث وسوق الى مقام الاحسان وما خيرية التصدق بمشروطة بعلم المتصدق بقدرها ومبلغها بل ذلك اعراب عن أن العلم بتلك الخيرية ينشل العبد من وحل التوقف والتخوف الى الابحار فى المسارعة والمنافسة فى التصدق على المعسر بما هو مدين به

---

(١٠٠) المبسوط لابن مهران /٢٨٠ ٠

(١٠١) الموضع السابق ٠

٢ - صيغة النهي :

الحق أن للنهي صيغة موضوعة للدلالة على حقيقة معناه وضعــا تحقيقيا ،وجمهور أهل العلم على أن صيغته هي (لا) الجازمة الداخلة على فعل مضارع(١) والأعلى أن (لا) حرف غير مركب على خلاف ماذهب اليه بعض أهل العلم(٢) ·

ويكثر دخول (لا) الناهية على مضارع رافع ضمير خطاب ، كما في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصـارى أولياء بعضـهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهـدى القوم الظـالمين » (المـائدة /٥١) فان النهي في (لا تتخـذوا) موجـه الى المخاطبين المنـادى عليهم بعنوان الايمـان الداعي الى الاسراع الى طاعة الناهي · وعدل عن مثل قولنا لا توالوا اليهود والنصارى الى النهي عن اتخاذهم أوليـاء ففي الاتخاذ معنى التمكن والسعى الى الشيء والعناية بأمره تقول أتخذت فلانا صديقا ، ومنه « فاتخذت من دونهم حجابا » (مريم /١٧) ، « تتخذون من سهولها قصورا » (الأعراف /٧٤) فهو نهي موجه الى أعلى صور الموالاة تنفيرا وتقبيحا لجميع صورها فانه نهج في بيان القرآن العظيم وجاء قوله (بعضهم أولياء بعض) « لتعليل النهي وتأكيد ايجاب الاجتناب عن المنهي عنه أي بعضهم أولياء بعض متفقون على كلمة واحدة في كل ما يأتون وما يذرون ومن ضرورته اجماع الكل على مضادتكم ومضـارتكم بحيث يسومونكم السـوء ويبغونكم الغوائل فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة »(٣) وهذا باق فيهم الى يوم القيامة

---

(١) ينظر مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٥٢ ، المطول ص ٢٤٠ ، الأطول ٢٤٩/١ ، شروح التلخيص ٣٢٤/٢ ·

(٢) ينظر همع الهوامع للسيوطي ٥٦/٢

(٣) ارشاد العقل السليم لأبي السعود ٤٨/٣ ·

لم ينسخه شيء اذ أن سورة المائدة نزلت بعد صلح الحديبية ولم ينسخ منها شيء عندجمهور أهل العلم(٤) فهو من الهدى المحكم ، وجاء قوله « ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين » بالغ الزجر والوعيد لمن والاهم من بعد ذلك ، ولا يفعلها الا منافق في قلبه مرض ·

وهذا النمط من صيغة النهى فى الذكر الحكيم هو أكثر أنماطها فقد جاء فى سورة البقرة وحدها فى رواية حفص عن عاصم ، على سبيل المثال ثماني وثلاثين مرة(٥) وتسعا وثلاثين مرة فى قراءة نافع ويعقوب(٦)

وقد يكون مدخول (لا) الناهية لمضارع الرافع ضمير غائب أو اسما ظاهرا اذ هو فى قوة الضمير الغائب ومن ذلك قوله تعالى : « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » (آل عمران /٢٨) ·

وما جاء فى سورة المائدة أشد فى النهى عن موالاة غير المؤمنين وذلك

---

(٤) الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس - ت شعبان اسماعيل ص ١٤١ (ط /١ سنة ١٤٠٧هـ) عالم الفكر بالقاهرة ، المحرر الوجيز لابن عطية ١٢٦/٥ (ط / المغرب) والنظم الفنى للصعيدى ص ٨٩ ·

(٥) جاء هذا فى الآيات الآتية من السورة/١١ - ٢١ - ٣٥ - ٤١-٤١ - ٤٢ - ٦٠ - ١٠٢ - ١٠٤ - ١٣٢ - ١٤٧ - ١٥٠ - ١٥٤ - ١٦٨ ١٨٧ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٥ - ١٩٦ - ٢٠٨-٢٢١-٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٤ - ٢٢٩ - ٢٣١ - ٢٣١ - ٢٣٣ - ٢٣٣ - ٢٣٥ - ٢٣٧ - ٢٦٤ - ٢٦٧ - ٢٨٢ - ٢٨٣ ·

(٦) قرأ نافع ويعقوب قوله تعالى ولا تسأل عن أصحاب الجحيم (ى ١١٩) بالجزم (لا تسأل) على النهى (راجع المبسوط لابن مهران ص ١٣١) ·

أليق بسياق سورة المائدة وبمرحلة التشريع التى نزلت فيها . فان فيها ابلاغا فى النهى حيث وجه الى كل من كان له من الايمان نصيب وان لم يبلغ فيه مبلغ الذورة ، فجاء البيان بقوله « الذين آمنوا » دون قوله « المؤمنون » والفرق بينهما فى مدرجة الايمان بين فى الواقع وفى البيان القرآنى ، وجاء البيان عن النهى عن موالته بقوله (اليهود والنصارى) دون قوله (الكافرين) ليعم كل من كان من هذين الفريقين أيا كان مقامه فى الاستمساك بهما فالانتساب الى أى منهما موجب للمفاصلة والبراءة من الموالاة وهذا أفسح مجالا من قوله (الكافرين) لانه قد يظن أن من كان يهوديا أو نصرانيا ليس بالبالغ مبلغ الملحد فى الكفر فلا يكون مثله فى النهى عن موالته ، وذلك غير قويم ، فكل من كان غير مسلم ، فهو منهى عن موالاته أيا كان موقعه فى الكفر بالله او برسوله صلى الله عليه وسلم ، واذا ما كان هذا مبلغ النهى مع من كان يهوديا أو نصرانيا وهو من أهل الكتاب فانه مع من كان غيرهم أشد وأبلغ . وهذا كله آنس بسياق (المائدة) وبموقعها فى مدرجة التشريع ، ولذا كان التحذير والوعيد فيها حد عظيم ولم يستثن من النهى حالا من الأحوال . بينما سورة (آل عمران) كان فيها البيان عن النهى موالاتهم بوصف (الكافرين) وجاء التحذير والوعيد دون ما كان فى المائدة (ويحذركم الله نفسه) ومن بعد أن استثنى حالة الموالاة الظاهرة تقية ، وفى هذا دلالة على أنه أسبق فى باب التشريع مما فى سورة المائدة ، لأن فسح باب الموالاة الظاهرية اتقاء فيه اشارة الى أن المؤمن لا يلجه الا اضطرارا وأن ذلك نازل فى حقية المهادنة ، ولذلك قال قوم من السلف : لا تقية بعد أن أعز الله الاسلام ، وقوله « من دون المؤمنين » يوحى ظاهره أن ذلك النهى مقيد بما اذا كانت هذه الموالاة خاصة بالكافرين مقصورة عليهم أما ان كانت أمرا جامعا بين موالاة الكافرين والمؤمنين فليس من النهى عنه فى شىء وفقا لما يمكن أن يؤخذ من ظاهر النص بسبيل مفهوم المخالفة(٦)

---

(٦) البلاغيون المتأخرون يتعرضون فى باب القصر (...) فيما هو

وهذا غير قويم اذ ان تحقيق الموالاة بين الفرقتين والجمع بينهما في غير ما تعارض لا يكون البتة الا اذا تخلى الكافرون عن منهجهم في العلاقة بالاسلام وأهله ، وهو منهج معاندة ومناهضة ، أو اذا تخلى المؤمنون عن حقيقة الايمان فلا يكون أيضا جمعا بين موالاة الفريقين ، فلا يستقيم القول بأن المنهى عنه « اتخاذ الكافرين أولياء دون المؤمنين ، أى ولاية المؤمن الكفار التى تنافى ولايته المؤمنين ، وذلك عندما يكون فى تولى الكافرين اضراربالمؤمنين ، وأصل القيود أن تكون للاحتراز »(٧) أضف اليه ان فى الموالاة معنى المناصرة ، وهى لا تتحقق لكافر الا لزمها اضرار بمسلم ما ان عاجلا أو آجلا فمناصرتهم دون اضرار بأحد من المؤمنين أيا كانت صورة الاضرار أمر لا يكون ، والله سبحانه وتعالى قد نهى فى السورة نفسها عن اتخاذ بطانة من دون الذين آمنوا : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا » (الآيات /١١٨ - ١٢) وفى البطانة معنى المداخلة والمقاربة وهى من دون الموالاة والمناصرة . والله عز وعلا لم يأذن لنا فى الذين لم يقاتلونا فى الدين ولم يخرجونا من الديار الا بالبر والقسط وهما غير الموالاة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (الممتحنة /٨)والمقاتلة فى الدين غير محصورة فى المقاتلة بالسيف وما ضارعه فان صور المقاتلة كثيرة قد يكون السيف أدناها ، فالفتنة والاحتكار والغش وتضليل الفكر وتزييف الحق ونشر المرض ... الخ اعتى وانكى من ضرب بسيف وما يفعله بالمسلمين اليهود والنصارى والملحدون ومن شايعهم هو من المقاتلة فى الدين . فالقيد فى قوله (من دون المؤمنين) انما جاء مصورا

قصر افراد و (مكان) فيما هو قصر قلب أى أن (دون) تدل على المشاركة وذلك من قبيل الاصطلاح وقد صحح استعمال أحدهما موضع الآخر (شروح التلخيص ٢/١٧٥ - ١٧٧)

(٧) التحرير والتنوير ٣/٢١٦ .

أعلى صور ما ينهى عنه ومن سمة البيان القرآني حين يذهب الى الابلاغ في النهي عن الشيء أن يعمد الى أعلى صورة وأشنعها فينهى عنها بغية الوصول الى أن يقلع عن الفعل كله ولا يتلبس المنهي بأي صورة من صور الفعل وذلك مسالك من مسالك التربية والهداية والابانة(٨) وهذا ما نراه جليا في معالجة الأمة في كثير من الأدواء الموبقة كالربا : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » (آل عمران /١٣٠) والزنا كما في قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » (النور /٣٣) وموالاة الكافرين كما في الآية التي نحن معها . فان هذه الأفعال الربا والزنا وموالاة الكافرين من المدمرات للأمة حسا ومعنى .

وقد جاءت (لا) الداخلة على مضارع رافع اسما ظاهرا أو ضمير غائب أربعا وأربعين مرة على قراءة حفص عن عاصم (٩) وبعض هذه الصور كان المعنى على نهي المخاطب ، وان يكن ظاهر النظم نهيا لغيره ، كما في قوله تعالى : « ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر انهم لن يضروا الله شيئا يريد الله الا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم (آل عمران/ ١٧٦) فانه من بعد أن بين أن الذين يثبطون المسلمين عن القتال انما هم

---

(٨) دلالات التركيب للدكتور محمد أبو موسى ص ٢٧٤ .

(٩) جاء ذلك فيما يأتي : (البقرة) ٢٣٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٢ (آل عمران) ٢٨ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٩٦ (المائدة) ٢ ، ٨ ، ٤١ ـ الاعراف/ ٢ ، ١٧ ـ (الانفال) ٥٨ (التوبة) ٢٨ ، ٥٥ ، ٨٥ ـ (يونس) ٧٨ (هود) ٨١ ، ٨٩ (الحجر) ٦٥ (الكهف) ١١٠ (طه) ١٦ (الحج) ٦٧ (النور) ٢ ، ٣١ ، ٣١ ، ٣١ (النمل) ١٨ (القصص) ٨٧ (الروم) ٦٠ (لقمان) ٢٣ ، ٢٣ ، ٣٣ ، (فاطر) ٥ ، ٥ ، ٨ (يس) ٧٦ (غافر) ٤ (الزخرف) ٦٢ (الحجرات) ١١ ، ١٢ (المنافقون) ٩ (الطلاق) ١ .

(ـ ـ ـ ـ ورقة)

جند الشيطان يخوفونهم أولياءه : أبا سفيان وأعوانه ، ونهى المسلمين عن الخوف منهم وأمرهم بالخوف منه جل جلاله ، وجه الكلام الى قائد الامة صلى الله عليه وسلم فقال (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) فهو وان كان نهيا للذين يسارعون في الكفر عن احزانه فانه فى حقيقته نهى للنبى صلى الله عليه وسلم عن أن يحزن باسراعهم فى الكفر فكأنه قال : لاتحزن باسراعهم فى الكفر وبين له أن اسراعهم هذا لن يضر الله شيئا ففيه ابلاغ فى نهيه عن الانشغال بهم تأثيرا فى الاسلام والمسلمين أو الانشغال بمصيرهم فكان قوله (انهم لن يضروا الله شيئا) كالعلة للنهى عن الأول وكان قوله (يريد الله الا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم) كالعلة للنهى عن الثانى .

وقد جاء مثل ذلك فى أربعة مواضع أخرى من القرآن (١٠) كان النهى فى جميعها دالا على نهى النبى صلى الله عليه وسلم وظاهره نهى غيره .

وقد تكون (لا) الناهية داخلة على مضارع رافع ضمير خطاب على قراءة واسما ظاهرا على قراءة أخرى ، كما فى قوله تعالى : « ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لأنفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » (آل عمران /١٧٨) قرأ عاصم والكسائى وخلف وأبو جعفر ونافع وابن عامر ويعقوب بالياء فى (يحسبن) على انه نهى للذين كفروا وقرأ بقية العشرة : ابن كثير وأبو عمرو وحمزة بالتاء على أنه نهى للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب (١١) .

وعلى القراءة الأولى (بالياء) فيه مشاكلة لما عطف عليه من قوله تعالى : (ولا يحزنك الذين يسارعون) فكلاهما نهى موجه الى غير

---

(١٠) المائدة /٤١ ، يونس /٦٥ ، لقمان /٢٣ ، يس /٧٦ .
(١١) المبسوط لابن مهران ص ١٤٩ .

المخاطب ، وفيه مناسبة دلالية فان مآل نهي الذين كفروا عن الحسبان .. نهيهم عن السرور بظاهر املائه تعالى لهم بناء على حسبان خيريته لهم وتحسيرهم ببيان أنه شر بحت وضرر محض ، كما أن مآل المعطوف عليه نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحزن بظاهر حال الكفرة بناء على أنهم قد يضرون المسلمين باسراعهم في الكفر وتبشيرا له صلى الله عليه وسلم ببيان عجزهم عن ذلك بالكلية (١٢) .

وعلى القراءة الثانية (بالتاء) يكون نهيا للنبي صلى الله عليه وسلم عن فعل لم يقع منه فلا تكون الصيغة دالة على حقيقة معنى النهي الذي حققناه لأن هذا الحسبان لا يقع منه صلى الله عليه وسلم اذ الحسبان في المعجم الدلالي للقرآن لا يستعمل الا في مقام الدلالة على البعد عن الحقيقة والصواب فحيث ورد هذا الفعل (حسب) فهو دال على ضلال فاعله فيما ذهب اليه بخلاف الفعل (ظن) فقد يأتي بمعنى اليقين أو ما قاربه ، والحسبان والظن ليسا متقاربين في الدلالة . وفي النهي هنا تفظيع لحالهم وبيان لخسرانهم ففيه تسلية للأمة حين ترى موفور زخرف الدنيا في أيدي الذين كفروا فما ذلك الا استدراج لهم (انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين) (١٣) .

* * *

وثم نمط آخر في العربية هو دخول (لا) الناهية على مضارع رافع ضمير متكلم وهو ما يعرف بأسلوب (لا أرينك ههنا) وقد جاء في شعر النابغة الذبياني :

لا أعرفن ربربا حورا مدامعها   مردفات على أعقاب أكوار

---

(١٢) ارشاد العقل السليم لابي السعود ١١٧/٢ (بتصرف) .

(١٣) ومثل هذه الآية الآيات رقم ١٨٠/ ١٨٨ من السورة نفسها .

وهو مما أقيم فيه السبب مقام المسبب والأصل لا تكن هنا ، فأراك ، وفى قول النابغة مآله لا تعتدوا على حمى النعمـان فتذهب نساؤكم واراهن يبكين مردفات خلف الرجال (١٤) ٠

ولم يقع لى هذا النمط فى الذكر الحكيم على القراءات العشر ، وقد قرأ الحسن والشعبى قوله تعالى : «ولا نكتم شهادة الله انا اذا لمن الآثمين» (المائدة /١٠٦) بجزم (نكتم) على أن (لا) ناهية أى ينهان أنفسهما عن كتمان الشهادة (١٥) ٠

ويبقى عليه عطف (جملة النهى) على جملة الخبر (لا نشترى) التى هى جواب القسم عند من يمنع عطف الانشاء على الخبر ٠

* * *

وقد تأتى (لا) فتكون ناهية على قراءة ونافية على أخرى ، وذلك كما فى قوله تعالى : « انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » (البقرة /١١٩) قرأ نافع ويعقوب بجزم (تسأل) على النهى ، وقرأ الباقون من العشرة على الرفع على أن (لا) نافية ٠

على قراءة الجمهور يكون الكلام خبرا والجملة إما أن تكون حـالية أو استئنافية فان تكن حالية فهى كقـوله (بشيرا ونذيرا) أى وغـير مسئول عن أصحاب الجحيم ٠

ولا بعد فى مجيىء الحال جملة فعلية بعد حال مفـرد فذلك غيـر قليـــل ٠

وان تكن مستأنفة فان ابن مسعود قد قرأ (ولن تسأل) وقـــرأ أبى بن كعب (وما تسأل) وذلك يؤكد حملها على الاستئناف ٠

---

(١٤) المغنى الابيمى ١٩٩/١ ٠

(١٥) البحر المحيط ٤٤/٤ المحرر الوجيـــز لابن عطية ٢٢/٥ (ط/ المغرب)

وفى الرفع تناسق بين الجمل السابقة عليها واللاحقة ، فكلهـا خبرية .

وعلى قراءة نافع ويعقوب فالنهى يراد به تهويل حال أصحاب الجحيم أى أنهم فى خطر عظيم لا تسأل عنه (١٧) ومن سنة العرب أن تنهى عن السؤال عن الشىء حين تريد الابلاغ فى تهويله أو تفخيمه وتعظيمه ، ومن ذلك ما رواه الشيخان من حديث عائشة فى صلاة النبى صلى الله عليه وسلم : « ما كان يزيد فى رمضان ولا فى غيره على احدى عشرة ركعة يصلى أربعا فلا تسل عن حسنهن وطولهن ... » (١٧) .

فالكلام ظاهره النهى وباطنه التعظيم ، وعلى ذلك تكون (الواو)فى الآية على قراءة نافع ويعقوب عاطفة جملة انشائية لفظا خبرية معنى على انشائية لفظا ومعنى .

* * *

وجمهور أهل العلم على ان للنهى صيغة واحدة هى التى سبق بيانها وذهب بعضهم الى انه يلحق بها (اسم الفعل) الدال على معنى (لا تفعل) نحو قوله (مه) فانه بمعنى (لا تفعل) وصه بمعنى (لا تتكلم) (١٨)

---

(١٦) المبسوط لابن مهران ص ١٢١ ، ابراز المعانى لابن شامه ص ٣٤٢ ، الحجة للفارسى ١٦٣/٢ ، ١٦٨ ، المحرر الوجيز لابن عطية ٣٤٣/١ - ٣٤٤ ، دلالات التراكيب ص ٢٧٧ .

(١٧) صحيح البخارى : التراويح - فضل من قام رمضان (فتح البارى ٢٠٥/٤) وصحيح مسلم : المسافرين - صلاة الليل - ح = ٧٣٨/١٢٥ جـ ١ ص ٥٠٩ .

(١٨) ارشاد الفحول للشوكانى ص ١٠٩ ، فواتح الرحموت ٣٩٥/١ .

ولكن الظاهر من دلالة (مه) انما هي (كف) وليس (لا تفعل) وان يكن قولنا (لا تفعل) مآل (كف) ولازمه ، ومثله القول في (صه) واذا ما كان « ابن جني » قد ذكر أن أسماء الفعل على ضربين أحدهما في الأمر والنهي والآخر في الخبر فانه في بيان الأول لم يتحدث عن غير الأمر ، ولم يذكر شيئا من النهي وأول أسماء الفعل الطلبية بمعنى الامـــر (١٩) ٠

ومجمل القول أن الأعلى القول بان للنهي صيغة واحدة ، فانه لم يقع لي في البيان القرآني صيغة أخرى للنهي وجميع ما كان فيه من اسماء الفعل الطلبية أولها أهل العلم بمعنى الأمر كما مضى تبيانه ٠

---

(١٩) الخصائص لابن جني ٣/٣٤ ـ ٣٥ ٠

الضرب الثاني من صورة معنى الأمر والنهى

« الأســــــلوب »

هذا الضرب فيه ما يعرب عن معنى الأمر أو النهى على غير اصطارحة الشاخصة فيما كان من الضرب الأول الآنف تبيانه ، وهو ما عرف بصيغة الأمر أو النهى ، وفى العربية عامة وفى البيان القرآنى خاصة أساليب عديدة يعرب بها عن معنى الأمر أو النهى سواء كان ذلك مما سيق النظـم أصالة أو تبعـا ، أو لم يسـق له فكانت افادته له اشـــارية وهذا الضرب يستجمع رحاق دلالته من السياق : مقالا ومقـاما ، وهو ما يمكن أن يسمى بالدلالة الاسـلوبية أى من مجموع مكوناته المقـالية والمقامية لا من عنصر من عناصره ، وغير خفى أن افادة الاسـاوب معنى ما غير دلالة الصـيغة التى هى عنصر من عنـاصره على ذلك المعنى جلاء وخفاء أو ضبطا وانفتاحا ·

والأساليب المعربة عن معنى الامر أو النهى فى الذكر الحكيم جد كثيرة، أذكر ما أدركته البصيرة ، فان كان غير ما أذكـر فانما هو الغفلة أو الخـور ·

(أولا) أسلوب الخبر المعرب عن معنى الامر والنهى :

أخبار الكتاب والسنة فى سياق التشريع انما يراد بها الطلب أمرا أو نهيا والوجه فى هذا عند « السعد التفتـــازانى » أنه لما كان مدلول الخبر هو الحكم بثبوت مفهوم أو نفيه عنه فالمحكوم به فى خبر الشارع ان كان هو الحكم الشرعى مثل : « كتب عليكم الصيام » ، « وأحل الله البيع وحرم الربا » فلا يخفى أنه يفيد ثبوت الحكم الشرعى من غير أن يجعل مجازا عن الانشاء ، وان لم يكن كذلك فوجه افادته الحكم الشرعى أن يجعل الاثبات مجازا عن الامر والنفى مجازا عن النهى فيفيد الحكم الشرعى بابلغ وجه »(١) يريد « السعد » أن الأول لما كان صريحا فى

---

(١) التلويح على التوضيح للسعد التفتازانى ١/٢٨٧ ·

افادة ما يراد من الأمر أو النهي من حكم بالوجوب أو الحرمة لم يكن المصير الى تأويله بالانشاء بخلاف الآخر ·

(أ) (الخبر المعرب عن الأمر) :

جمهور البلاغين والمفسرين والأصوليين على أن الامر قد يأتي في صورة الخبر(٢) فيعرب عن معناه على نحو لا يكون لصيغة الأمر أن تعرب عنه ، كما أنه يقام في مساق لا يكون لصيغة الامر ان تقام فيه فتتناغى معه ومقتضيات اخراج الأمر في صورة الخبر في الذكر الحكيم جد كثيرة تتنوع بتنوع السياق ، فلكل موقع ما ليس للآخر :

من ذلك قوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الاخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ان أرادوا أصلاحا ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم » (البقرة/ ٢٢٨) · في مساق تبيان الأحكام المنظمة العلاقة بين الرجل وزوجه حال المفاصلة التى قد تكون ضرورة لا تستقيم الحياة بدونها جاءت هذه الآية ، وكان من قبلها قد بين ما هو الهدى في حال وقوع الرجل في قبضة الايلاء من زوجه فجعل له أربعة اشهر يتربصها ، فان شاء أمضى وأنفذ وان شاء فاء وراجع ، وهذا من فيض الرحمة بكل من الرجل

---

(٢) المفتاح للسكاكى /١٥٥ ، المطول /٢٤٦ ، المصباح لابن الناظم /٩٢ ، شروح التلخيص ٢٣٨/٢ - ٢٤٠ ، الاشارة الى الايجاز /٢٧ ، الاطول ٢٥٢/٨ الكشاف ٣٧٠/١ ، ٢١٦/٢ ، ٢٢٥ المحرر الوجيز لابن عطية ٦٤/١ ، ٢٠٨/٢ ، التبيان للعكبرى ٩٥/١ ، ٢٦١/٢ ، التحرير والتنوير ٢٨٨/٢ ، المحصول للرازى ٥٠/٢/١ - ٥٢ الموافقات للشاطبي ١٥٥/٣ ، التوضيح لصدر الشريعة ١٨٦/١ ·

وزوجه ، اذ جعل للرجل فسحة يؤوب فيها الى نفسه ، يدفع عنها الغضب ، فيعفو ، ولم يجعل ايلاءه طلاقا على الفور ، وفي قوله « فان فاء فان الله غفور رحيم » حث بالـغ له على أن يعفو ويغفر ، واذ جعل للمرأة نهاية لتعليقها ، فلا تكون كما كانت عليه في الجاهلية في مثل هذا ، اذ انها كانت تعلـق لا أيما ولا ذات زوج (٣) وفي قـوله « وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم » تهديد بالغ اذ الطلاق أمانة في يد الرجل ، فليحذر المضارة فان الله سميع عليم ٠

في هذا المساق جاء البيان عما هو أمانة المطلقة من تربص العـدة واستبراء الرحم ، فهو عقيب البيان عما هو أمانة الرجل من الطلاق ٠

« قال الحرالي : لما ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ تربص الزوج في أمر الطلاق الذي هو أمـــانته ذكـــر تربص المرأة في أمر العـدة التي هي أمانتها »(٤) فقال : والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ٠

ظاهرة العبارة اخبار بأن المطلقات يقع منهن تربص بأنفسهن ثلاثة قروء ، فان حمل المعني على ظاهر البيان كان مناقضا بعض ما هو واقع ، فكم من مطلقة حرة مدخول بها من ذوات القروء (٥) لا يكون منها ذلك التربص ، فكان في شاهد الحال قرينة صارمة عن حمل المعنى على ظاهر البيان الى معنى يتناسق مع واقع الحال وحكمة التشريع ٠

---

(٣) اسباب النزول للواحدي ص ٤٩ ٠

(٤) نظم الدرر للبقاعي ٢٩٤/٣ ٠

(٥) قيدته بذلك لما يقضي به السياق فقوله (ثلاثة قروء) مخرج الكبيرة والصغيرة وذات الحمل ، والسياق القرآني مخرج للتي لم تدخل بها والسنة مخرجة للامة ٠ فالنص القرآني انما يضبط وجه المعنى فيه بمراجعة السياق القرآني كله ولما جاء في السنة الصحيحة أي مراجعة بيان الوحي كله ٠ فان بعضه يهدي الى الوجه الحق في بعض ٠

ذلك المعنى هو طلب وقوع التربص منهن على نحو ما أخبر به ظاهر النظم ، فكأنه قيل : ليتربص المطلقات بأنفسهن ثلاثة قروء ، وانما عدل عما يقتضيه ظاهر الحال الى ما جاء عليه البيان تأكيدا لامرهن بالتربص واشعارا بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة الى امتثاله (٦) ·

ويعلى التوكيد بناء الفعل (يتربصن) على المبتدأ (المطلقات) ولو قيل : ويتربص المطلقات لم يكن بتلك الوكادة ، ووجه ذلك ما فيه من تكرر الاسناد على جهة الخبرية أولا ، وعلى جهة الفاعلية ثانية ، وكذلك لما ذكر المبتدأ أولا أشعر السامع بأن هناك حكما عليه فلما ذكره كان اوقع عنده من ذكر الحكم ابتداء ·

« ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل الا لحديث قد قوى اسناده اليه ، واذا كان كذلك ، فاذا قلت : « عبد الله » فقد اشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فاذا جئت بالحديث فقلت مثلا : « قام » ····· فقد علم ما جئت به ، وقد وطأت له ، وقدمت الاعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول المهيا له المطمئن اليه ، وذلك لا محالة أشد لثبوته ، وأنفى للشبهة ، وأمنع للشك ، وأدخل فى التحقيق » (٧) ·

ولما كان ما أريد منهن أمرا عظيما وذا شأن في حياتهن وحياة الأمة كان الأنس اخراج طلبه منهن فى صورة الخبر عنهن ، ولذا جاءت العبارة عن الفعل المأمور به بقوله (يتربصن) دون قولنا (ينتظرن) ايماء الى الحذر والأخذ بالتعهد والاعراض عن التساهل والتنازل فى هذا حذرا من

---

(٦) ينظر : الكشاف ٣٦٥/١ ، وقد تردد ذلك فى غيره كالبيضاوى ٢١٠/٢ (حاشية الشهاب) ، نظم الدرر ٢٩٥/٣ ، تفسير أبى السعود ٢٢٥/١ التحرير والتنوير ٢٨٨/٢ ·

(٧) دلائل الاعجاز لعبد القاهر ص ١٣٢ (ت/ شاكر) ·

التردى في شرك الشهوة الى التعرض للرجال ، ففى التربص معنى ليس فى الانتظار ، ولذا جاء قوله (بأنفسهن) ففى « ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث لأن فيه ما يستنكف منه فيحملن على أن يتربصن وذلك أن أنفس النســاء طوامح الى الرجال ، فأمرن أن يقمعن انفســهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص»(٨) على الرغم من أن التربص انما تقضى به الفطرة السوية ، فمن لم تحرص عليه فقد خالفت فطرتها السوية ، يضاف اليه ان ذلك لما كان أمانة فى يدها ، كما كان الطلاق أمانة فى يد الرجل ، قد يوقعه متلفظا به فى خلوة ، نجد بولغ فى دعوتها وحثها على القيام بالوفاء بحق تلك الأمانة فأخرج الابلاغ فى أمرها فى صورة الاخبار عنها •

---

(٨) الكشاف ١/٣٦٥ •

يقول الأستاذ / سيدقطب رحمه الله : « لقد وقفت أمام هذا التعبير اللطيف التصوير لحالة نفسية دقيقة • ان المعنى الذهنى المقصود هو أن ينتظرن دون زواج جديد حتى تنقضى ثلاث حيضات أو حتى يطهرن منها ، ولكن التعبير القرآنى يلقى ظلالا أخرى بجانب ذلك المعنى الذهنى انه يلقى ظلال الرغبة الدافعة الى استئناف حياة زوجية جديدة • رغبة الأنفس التى تدعوهن الى التربص بها والامســاك بزمامهــا مع التحفز والتوفز الذى يصاحب صورة التربص ، وهى حالة طبيعية تدفع اليهــا رغبة المرأة فى أن تثبت لنفسها ولغيرها أن اخفاقها فى حياة الزوجية لم يكن لعجز فيها أو نقص ، وانها قادرة على أن تجتذب رجلا آخر ، وأن تنشىء حياة جديدة • هذا الدافع لا يوجد بطبيعته فى نفس الرجل لأنه هو الذى طلق بينما يوجد بعنف فى نفس المرأة ، لأنها هى التى وقع عليها الطلاق ، وهكذا يصور القرآن الحالة النفســية من خلال التعبير ، كما يلحظ هذه الحالة ويحسب لها حسابا » (فى ظلال القرآن جـ ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٠) •

ومن الباب نفسه قوله تعالى من بعد ذلك :

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبيرا » (البقرة /٢٣٤) .

فقوله (يتربصن) اعراب عن طلب التربص من أزواج الذين يتوفون ، فكأنه قيل : يتربص أزواج الذين يتوفون منكم ...

وجاء هذا الطلب في معرض الحديث عن عدة الأزواج ، وقد سبق تبيان عدة المطلقات ، فعطف هنا عليه تبيان عدة المتوفى عنهن أزواجهن، وكان ظاهر السياق أن يقال : وأزواج الذين يتوفون يتربصن ، لكنه عدل عن ذلك ايماء الى ما ذكرناه فى الآية الآنفة والى ان هذا التربص ينبغي أن يكون من زوج المتوفى فطرة وديانة ومروءة ، فذلك أدنى حقوق الزوج المتوفى عليها اذ عاشرته ردحا من الدهر وأفضى اليها وأفضت اليه وكذلك ايماء الى أن ذلك التربص أمر ميسور على النفس السوية حتى لكأنه لموافقته الفطرة ويسره واقع بنفسه لقوة الأسباب المقتضية وقوعه، وكان التربص صفة كاشفة للتى تركها ذلك المتوفى ، فلا يكون لها أن تعمل على التخلى عنها ، وفى هذا من الابلاغ فى الحث على تحقيق ذلك التربص على النحو الأكمل ما فيه ، يضاف اليه ما فيه من تصوير شناعة ما يقع من بعض النفوس الضالة حين تتعرض للرجال من قبل انقضاء عدة الوفاة .

ومن هذا الباب أيضا قوله تعالى :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة» (البقرة /٢٣٣) .

جاء فى معرض تبيان أحكام ما يقع بين الزوجين من مشاجرة

ومفاصلة لتبيان ما يجب للوليد على والديه حين تكون المفاصلة(٩) تقرر في هذه الآية حقوق الوليد على والديه وحق كل والد منهما على الآخر .

جاء قوله (والوالدات يرضعن) أمرا بارضاعهن أولادهن حولين كاملين في صورة الاخبار عنهن ، الهابا لهن وتهييجا وحثا حتى لا يغرقن في حمأة الضيق والغضب مما وقع بهن من طلاق ، فينشزن على ما تقضى به الفطرة السوية ، فيعرضن عن ارضاع أولادهن نكاية في الزوج .

وظاهر البيان يحتمل وجوها من المعنى : منها أن ذلك الارضاع حق عليها لوليدها ، وانه حق لها على الوالد لا تحرم منه ، ولم يأت النص بما يصرح بأحدهما ، ولكنه أقام فيه ما يعرب عن الأمرين منهما ، وهو أنه حق عليها لوليدها اذا ما وفى الوالد ما عليه لها « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » وحق لها اذا ما أرادت وقبلت أجر مثلها من المرضعات فليس للزوج منعها ، وليس لها أن تطلب فوق أجر مثلها بدلالة قوله تعالى « لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا

---

(٩) أشير بهذا الى أن قوله (الوالدات) عام اريد به خاص بدلالة السياق ، فليس هذا حكما في كل والدة بل فيمن طلقت ، وثم آراء عديدة في نوع الطلاق الذي يكون فيه اطلاق رجعي أم بينونة ، وخلاف في حالها قبل انتهاء العدة وبعدها ومنهم من يذهب الى اختلاف دلالة الأمر الوارد في صورة الخبر من حيث الوجوب والندب وفقا لحال الوالدة ، آثرت الاشارة ولم أبسط القول لأنى الى دراسة صورة الأمر وليس الى دلالاته .

راجع أحكام القرآن للشافعي : جمع البيهقي جـ ١ ص ٢٦٤ احكام القرآن للكيا الهراسي ٢٦٩/١ وما بعدها ، أحكام القرآن لابن العربي المالكي ٢٠٤/١ ، الكشاف ٢٧٠/١ ، أنوار التنزيل للبيضاوي ومعه عناية القاضي للشهاب ٣١٨/٢ ، المحرر الوجيز لابن عطية ٢٠٨/٢ ، فتح القدير للشوكاني ٢٤٤/١ ، التحرير والتنوير ٤٢٩/٢ .

مولود له بولده » فالأعلى أن ذلك حق لها وحق عليها أيضا ، فكان البيان الخبري عن الطلب الأمري آنس بهذين المعنيين وفيه أيضا اعراب عن أن ذلك الارضاع أقرب الى فطرة الأم والأب وأقرب الى عدالة التخلق بالاسلام فلا تزر وازرة وزر أخرى ، فكأنها ليست في حاجة الى التصريح بأمرها بالارضاع ان هي كانت على فطرتها ، فكان ذلك أولى بأن يخبر عنه أنه يقع منهن تشريعا وفطرة ، ولثبوته ووجوبه عند ذوي الحجى ديانة ومروءة .

وفي ذلك أيضا دلالة على أن ذلك الفعل المراد والمخبر عنه صورة انما هو قريب ميسور تعين الفطرة عليه ، وان في ذلك استقامة الحياة وصلاحها وصلاح المطلقة نفسها ووليدها ، فاخراج الأمر هنا في صورة الخبر ذو دلالات كثيرة .

ومما زادها توكيدا بناء الفعل على الاسم بناء يعلي وجوب الوقوع منهن الى درجة يقترب فيها التوكيد من التخصيص ، أو يدخل فيه حين تتحقق شرائطه التى أشرت اليها من قبل .

ويذهب الطاهر بن عاشور الى أن ذلك خبر أريد به التشريع واثبات حق الاستحقاق وليس بمعنى الأمر للوالدات والايجاب عليهن ، لأنه قد ذكر بعد أحكام المطلقات ولأنه عقب بقوله « وان أردتم أن تسترضعوا » فان الضمير شامل للآباء والأمهات على وجه التغليب ... ، فلا دلالة في الآية على ايجاب ارضاع الولد على أمه ، ولكن على أن ذلك حق لها ، وقد صرح بذلك في سورة الطلاق بقوله : « وان تعاسرتم فسترضع له أخرى » ولأنه عقب بقوله « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » وذلك أجر الرضاعة ، والزوجة في العصمة ليس لها نفقة وكسوة لأجل الرضاعة بل لأجل العصمة(١٠) .

---

(١٠) التحرير والتنوير للطاهر ٢/٤٣٠ .

والشيخ وان لم يقل هنا بأن الخبر للأمر فانه لا ينفى القول بمجيء الأمر في صورة الخبر وقد سبقت الاشارة اليه في قوله تعالى « والمطلقات يتربصن بأنفسهن » (البقرة /٢٢٨) ولكنه يذهب الى ان ثم صارفات عن القول بالأمر للايجاب على الوالدات من أنهن مطلقات ومثلها لا يجب عليها ذلك ومن انه علقه بارادة الاسترضاع من كل من الوالد والوالدة ، فهو تشريع أستحقاق لها لا عليها ، فان سلم له أنه ليس استحقاقا عليها بل لها فانه ما يزال معنى الأمر باقيا لأنه يعرب عن أمر الوالد بأن يجعلها مرضعة ان أرادت وان طلبت أجر مثلها ، وأهل العلم على ان الخبر هنا مفيد للأمر ولكن دلالته تختلف باختلاف الأحوال فقد يكون واجبا على الزوجة وقد يكون حقا لها يلزم الزوج به وصرفه الى وجه واحد في كل الأحوال والملابسات غير حميد فان النص مفتوح الدلالة الطلبية المؤكدة يحرر السياق المقامى والملابسات وجها من وجوه دلالته الطلبية فهو لا يخلق على كثرة الرد وهو مصلح كل زمان ومكان وحال .

* * *

ومواقع تصوير الأمر في صورة الخبر جد كثيرة في القرآن الكريم ، فكل تشريع في صورة اثبات هو في مآله الى الأمر بهذا التشريع ، لأنه ما يخبر به الا ارادة طلبه وايقاعه والاحكام التشريعية قد تكون في صورة اثبات وقد تكون في صورة نفى ولا ثالث ، فكان الخبر المراد به الأمر كثيرا كثرة التشريعات المثبتة .

وقد يعدل القرآن الكريم عن الأمر بالشيء مباشرة الى الاخبار عن أن الله يأمر به كما في قوله تعالى :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا » (النساء /٥٨)

فدلالة قوله (أن الله يأمركم) على طلب ايجاد ما أخبر أنه يأمر به أدل من دلالة صيغة الأمر على ذلك الطلب كأن يقال أدوا الأمانات الى أهلها واحكموا بين الناس بالعدل .

فليست الآية هنا الى مجرد الخبر بل الى الأمر الملزم الزاما لا يحتمل وجها آخر من الوجوه التي تحتملها صيغة الأمر من الندب والارشاد وغير ذلك .

فان ما أخبر أنه يأمر به انما به قوام الخلافة في الأرض : الأمانة والعدل ، فهما أساس كل خير وأساس كل طاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ،، فما من شيء فيه صلاح الفرد أو الأمة أو الكون مما شرعه الله الا وهو قائم على معنى الأمانة والعدل سواء في هذا علاقة العبد بربه عز وعلا وعلاقة العبد بنفسه وعلاقة العبد بأخيه المسلم وعلاقة العبد بغير المسلم سواء كان ذميا أم معاهدا أم حربيا ، كل ذلك يقوم على الأمانة والعدل . فهما روح كل علاقة أمر الله عز وعلا بها ايجابا أو سلبا .

ولما كانا كذلك كان اخراجهما في صورة لا تحتمل الا دلالة الطلب الالزامي الذي لا رخصة فيه أحق من اخراجهما في صورة يمكن حسبان وجوه من الدلالة فيها ان اصابة وان خطئا ، فكان الاخراج في صورة الاخبار بأن الله عز وعلا يأمر بذلك أدل على طلب الالزام . وغير خفي أن « في تصدير الكلام بكلمة التحقيق واظهار الاسم الجليل وايراد الأمر في صورة الاخبار من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به والدلالة على الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه »(١١) .

وان كانت هذه الآية قد نزلت عند فتح مكة ودخول النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة وما كان من قصة مفتاح الكعبة وطلب العباس ان

---

(١١) ارشاد العقل السليم لأبي السعود ١/١٩٢ ، وانظر معه التحرير والتنوير للطاهر ٥/٩١ .

عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ السدانة ، مما هو معروف (١٢) فان اهل العلم المحققين على « أنها عامة فى جميع الناس ... تتناول الولاة فيما اليهم من الأمانات فى قسمة الأموال ورد المظلامات وعدل الحكومات وغيره وتتناولهم ومن دونهم من الناس فى حفظ الودائع والتحرير فى الشهادات وغير ذلك ، كالرجل يحكم فى نازلة ما ونحوه والصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات أمانات لله تعالى »(١٣) .

ولما كان ما أمر به أمرا لازما جد عظيم الأثر فى حياة الأمة وبقائها قوية فردا وجماعا جاء قوله من بعد ذلك « أن الله نعما يعظكم به » تحريضا بالغا على سرعة وقوة الامتثال بما أمر والتمسك به فى كل شئون الحياة وقد أعرب عن عظيم التحريض على ذلك اصطفاء كلمة (يعظكم) وبناء العبارة على نحو يعدل عما قد يكون هو الظاهر ان ذلك نعم ما يعظكم الله به » أما اصطفاء كلمة (يعظكم) ففيه تأليف للنفس لتقبل على ماأمرت به اقبال حب واقتناع فالوعظ تذكير فيما يرق له القلب كما يقول الخليل(١٤) وهو فى أصله الى الرفق أقرب فان كان المقام اعراضا كان فى الزجر والتخويف أدخل وأما بناء العبارة فان تصدرها بأن المعربة عن وجه المعنى وتعليله والمغنية عن « الفاء العاطفة » « فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف مقطوعا موصولا معا »(١٥) وكان تقديم « اسم الجلالة » وبناء جملة « نعما يعظكم به » عليه اعرابا عن عظيم الثناء على ما يوعظون به ، فانه ثناء من الله عز وعلا ولذا كان اصطفاء اسم الجلالة

---

(١٢) ينظر أسباب النزول للواحدى ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(١٣) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/١٥٧ ، وانظر معه الكشاف ١/٥٣٥

(١٤) المفردات للراغب (مادة / وعظ) ص ٥٢٧ ط مصطفى الحلبي

(١٥) دلائل الاعجاز ص ١٨٧ ـ مراغي .

هنا وقد سبق ذكره في صدر الآية وفي هذا حث بالغ على الاقبال على القيام بما أمر به .

« والتناسق بين المأمور به من التكاليف وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وبين كون الله سبحانه (سميعا بصيرا) مناسبة واضحة ولطيفة معا فالله يسمع ويبصر قضايا العدل وقضايا الأمانة ، والعدل كذلك في حاجة الى الاستماع البصير والى حسن التقدير والى مراعاة الملابسات والظواهر ، والى التعمق فيما وراء الملابسات والظواهر ، وأخيرا فان الأمر بهما يصدر عن السميع البصير بكل الأمور »(١٦) .

وجاء الاخبار عن الأمر بالشيء دون التصريح بصيغة الأمر ـ أيضا ـ في قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى » (النحل /٩٠) والكلام في العدول عن صيغة الأمر : اعدلوا واحسنوا وآتوا ، كالكلام في التي قبلها من الاعراب عن وجوب الالتزام بما أخبر عن الأمر به .

والمأمور به هنا ثلاثة : عدل واحسان وايتاء ذي القربى

الأول يمثل أدنى ما تستقيم به الحياة وما تحقق به سعادة الفرد والجماعة وعز الأمة .

والثاني : الاحسان يمثل الدرج الأعلى من مدرجة الفضل المبني على أساس العدل أولا فيتجاوز مقام العدل الى مقام الفضل ثم الى ذروته (الاحسان) وفي القرن بينهما اعراب عن أن بعض شئون الحياة قد يعسر فيها الوقوف عند حد العدل فيكون الدخول في حمى الفضل والاحسان أحوط ، وكأنها دعوة الى صاحب الحق أن يعفو عن بعض حقه الذي يقضي له العدل فالعدل يلزم به من يقضي لغيره والاحسان يقوم به من يكون الحق له

وليس من شان القاضي بين اثنين أن يقضي بالاحسان لاحدهما دون رضى الآخر اذ يكون فيه ظلم له ٠

وايتاء ذى القربى من عطف الخاص على العام وهو يكون حينا من باب العدل يؤتى حقه المفروض ، ويكون حينا من باب الاحسان حين يؤتى فوق حقه ، وخص بالذكر على الرغم من دخوله فيما قبله من أنه « يكثر أن يغفل الناس عنه ٠٠ فقد تقرر فى نفوس الناس الاعتناء باجتلاب الأبعد واتقاء شره ، كما تقرر فى نفوسهم الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعود التساهل فى حقوقه ٠٠٠ ولأجل ذلك صرفوا معظم احسانهم الى الابعدين لاجتلاب المحمدة وحسن الذكر بين الناس ، ولم يزل هذا الخلق متفشيا في الناس حتى في الاسلام الى الآن ولا يكترثون بالأقربين »(١٧) ٠

* * *

من كل ما مضى تبين لنا أن العدول عن صيغة الأمر فى الدلالة على طلب ما لم يكن حاصلا وقت الطلب الى صيغة الخبر يراد به الى معان لا يكون لها بصيغة الأمر ما يكون لها بصيغة الخبر ٠

من ذلك أن فى تصوير المطلوب وقوعه فى صورة المخبر عنه اعلاما للمطلوب منه أن ذلك المطلوب انما هو محبوب للطالب ، وأن به استقامة الحياة وصلاحها وفى تخلفه افسادها ، وفي ذلك الاعلام حث بالغ على ايقاع المطلوب على النحو المحبوب ٠

ومن البين أن هذه الصورة تكثر فى الذكر الحكيم فيما يكون فيه صلاح المأمور وصلاح قومه ، وانما تكون غالبا حين يكون المطلوب منه على قدر طيب يفقه قدر الطالب وفقه وجوب تحقيق ما أخبر به صورة ، فكثر مع من يدرج فى مقام من مقامات الطاعة والقرب ؟

وفى اصطفاء هذه الصورة ـ أيضا ـ دلالة على التصد الى المسارعة فى تحصيل المطلوب أو التصد الى المبالغة فى الطلب نفسه أو القصد الى مدح المطلوب منه وأنه ممن يسارع فى الامتثال ، فهو جدير بأن يخبر عنــه لا أن يطلب منــه ، وفيــه دلالة على أن ما يطلب أمر قريب الوقوع أو مما تستدعيه الفطرة وتعين عليه الجبلة حتى لكأن ذلك المطلوب واقع بنفسه لقوة الأسباب المقتضية وقوعه أو المتآخذة فى وقوعه ، وأنه مما ثبت ووجب عنــد ذوى الحجى ديانة ومروءة ، فلا يتخلف إيقـاعه الا عند من ليس منهم ٠

تلك بعض ما يقام فيه تصوير الأمر فى صورة الخبر أما ما ذهب اليه بعض البلاغيين من أن فى هذا التصــوير اعرابا عن التفاؤل أو الاحتراز عن صورة الأمر او اظهار المتكلم حرصه على وقوع ما يطلب لأنه اذا عظمت رغبته فى حصول أمر يكثر تصوره ذلك الأمر فربما يخيل ذلك الأمر الى ذلك الطالب أنه حاصل فيخبر عنه (١٨) فانه مما لا يليــق قوله فى أمــر الله عز وجلا عباده ، وان جاز قوله فيما يقع من الخلق ويحكيه القرآن عنهم ٠

* * *

(ب) (الخبر المعرب عن النهى) :

جمهور أهل العلم على أن الخبر المنفى قد يرد فى سياق فيفيد النهى عما دخلت عليه أداة النفى أو لازم ما دخلت عليه ، فلا يكون النفى على ظاهره (١٩) مثلما كان الخبر المثبت مفيــدا لأمر بمضمونه في بعض

---

(١٨) ينظر المطول /٢٤٦ شروح التلخيص ٢/٣٣٨ ـ ٣٣٩ ، المصباح لابن الناظم ٩٢ ـ ٩٣ ، الطراز للعلوى ٣/٣١٩٤ ٠

(١٩) المفتاح /١٥٥ ، المصباح /٦٩ ، المطول /٢٦٢ ، ٧١ ٠ الحجة لأبى على الفارسى ٢/٢٥١ ـ ٢٥٢ ٠ ارشاد العقل السليم ١/١٢٣

المسافات ، وذكرنا ما أشار اليه السعد التفتازاني من وجه الدلالة في هــذا ٠

ومما كان الخبر فيه معربا على النهى قوله تعالى : « واذا أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون * واذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم اقررتم وأنتم تشهدون » (البقرة /٨٣ ـ ٨٤) ٠

لما كان قوله « واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل » معربا عن أن ذلك الميثاق انما هو تكاليف مضمنة أمرا أو نهيا ، وكان ما بعده تفصيلا لذلك الميثاق كان قوله (لا تعبدون) نفيا معربا عن معنى النهى عن عبادة غير الله الدال على وجوب اختصاص الله بالعبادة ٠

ولما كانت هذه الآية في مساق تعداد مقابح اسلاف اليهود وما وقع منهم في عهد موسى عليه السلام ايماء الى ان ذريتهم من بعدهم كذلك كان اخراج العبارة عن نهيهم عن عبادة غير الله فى صورة الخبر ادل على عظيم عنادهم وبعدهم عن طاعة الله ٠ وكأن فيه دلالة على ان هذا النهى قد بولغ فى طلبه منهم وأعرب لهم عن عظيم اهميته وجليل محبة الله عز وعلا طاعته فيه ، وعلى الرغم من ذلك فانهم ما أطاعوا الله فيما أبان لهم عن حبه أن يطيعوا فيه ، فأخرج النهى فى صورة خبر ايماء الى أنه من حقه ألا يكون منهم فيخبر به عنهم والى ما أشترت اليه من قبل ٠

وفى هذا اعراب للذين آمنوا عما هو جدير ببنى اسرائيل الذين فيهم من قطع الطمع فى ايمانهم بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم « افتطمعون أن يؤمنوا لكم » فان اسلافهم قد قست قلوبهم ولم يستجيبوا كما ابلغ الله عز وعلا فى طلبه منهم ٠ ومن كان كذلك فليس اهلا لأن تطمعوا فى خلفه ان يؤمن بدينكم ويؤيد القول بدلالة (لاتعبدون)

قراءة « ابى بن كعب وابن مسعود « : (لاتعبدوا) (٢٠) وكذلك عطف قوله . « وقولوا للناس حسنا » عليه .

وصرح البلاغيون بان الوصل كان لان الجملتين اتفقتا في المعنى واختلفتا في اللفظ فهو من عطف الأمر على النهي(٢١) .

وكذلك قوله في الآية من بعدها « لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » فانه خبر أريد به النهي عن سفك الدم والاخراج من الدار ، وغير خفي ان المعنى ليس نهيا عن ان يسفك المرء دم نفسه او يخرجها من دارها فذلك لا يقع من عاقل فينهى عنه ، بل المعنى على نهي المرء عن أن يسفك دم أخيه وان يخرجه من بيته ، وجعل فعل ذلك في أخيه فعله في نفسه ، « بناء على جريان كل واحد منهم مجرى أنفسهم لما بينهم من الاتصال القوى نسبا ودينا للمبالغة في الحمل على مراعاة حقوق الميثاق بتصوير المنهى عنه بصورة تكرهها كل نفس وتنفر عنها كل طبيعة » (٢٢) فالشأن في أى مجتمع مؤمن في أى رسالة سماوية انه قائم على أن ما هو حق فرد من أفراده انما هو في مآله حق الأخرين والمغايرة بين حقوق أفراده مغايرة ظاهرية تنتهي الى وحدة غائية ، فسافك دم أخيه سافك دم نفسه ومخرج أخيه من داره مخرج نفسه من دارها .

وفي هذا اعراب لهذه الأمة عن أنه اذا ما كان هذا مطلوبا مرغوبا فيه من بني اسرائيل في زمان موسى فكيف هو فيكم في زمان النبي الخاتم الاعظم صلى الله عليه وسلم . ؟ .

---

(٢٠) الكشاف ٢٩٣/١ ، المحرر الوجيز لابن عطية ٧٧/١ ٢

(٢١) المفتاح للسكاكي /١٢٤ ، المصباح لابن الناظم /٦٩ المطول/ ٢٦٢ ، الاشارات والتنبيهات لمحمد بن علي الجرجاني /١٢٨ .

(٢٢) ارشاد العقل السليم ١٢٤/١ .

وهذا الوجه آنس بالمقام من الذهاب الى ان قوله « لا تسفكون » و « لا تخرجون » من اقامة المسبب مقام السبب ، فيكون نهيا عن الوقوع فيما يفضى الى سفك دمهم قصاصا ، واخراجهم من ديارهم فيكون مآل النهى لا تسفكوا دم غيركم فيسفك دمكم ، ولا تخرجوا غيركم من ديارهم فتخرجوا من دياركم . والنهى عن المسبب وارادة السبب وان كان نهجا فى العربية والذكر الحكيم فان السياق هنا آنس بالوجه الأول لاعرابه عما ينبغى ان يكون عليه المجتمع المؤمن فى أى رسالة سماوية كما سبق ذكره

وجاء هذا فى سياق مذمة بنى اسرائيل تبيانا لأمة الاسلام أن أولئك الخالفين لهم من اليهود على شاكلتهم من الابلاغ فى العناد والعصيان ، فاذا كانوا قد عصوا الله فيما نهاهم من سفك دماء بعضهم واخراج اخوانهم من ديارهم افتطمعون أن يعصموا دماءكم ويحرصوا على بقائكم فى دياركم ؟! .

* ومن هذا الباب ما سبق ان تناولته فى اعراب الخبر على الامر قوله تعالى : والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن أن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك ان ارادوا اصلاحا ... » الآية (البقرة /٢٢٨). عطف قوله (ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله فى ارحامهن) على قوله (يتربصن) فهو مثله خبر اريد به الطلب فكان من عطف نهى على أمر فكأنه قيل « ليتربصن ولا يكتمن » فكما أكد الأمر بالتربص فأخرجه فى صورة الخبر أكد النهى عن كتمان ما خلق الله فى ارحامهن من حيض أو ولد ، فأخرجه فى صورة الخبر ، اذ الغاية فيهما الابلاغ فى دعوتهن الى الحرص على ايفاء الرجل حقه فى الرجعة ، فان حسن تربصها بنفسها ثلاثة قروء فيه ايفاء الرجل حقه فى الرجعة زمان العدة ، وفى الاعلان بما خلق الله فى ارحامهن من حيض أو ولد ، كذلك ايفاء الرجل

حقه فلا فراط ولا تفريط من بعد أن جعل للايلاء منهن حدا : تربص أربعة اشهر فاوفى لكل حقه ٠

ولما كانت الجملتان (يتربصن) و (لايحل لهن) مسوقتين الى الاعراب عن فريضة العدل من الزوجة فيما للرجل من حق زمن العدة ، جاء التهديد البالغ « ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر « ففى ذلك الشرط من الدلالة ما يعصم نفس المرأة عن الجنوح الى الانتقام والمعاقبة الجائرة . فذلك شرطالى التهديد لا الى التقييد ، فكان « على طريقة المجازالرسال التمثيلى. كما يستعمل الخبر فى التحسر والتهديد ، لانه لا معنى لتقييد نفى الحمل بكونهن مؤمنات ، وان كن كذلك فى نفس الأمر لان الكوافر لايتمثلن لحكم الحلال والحرام الاسلامى ، وانما المعنى أنهن ان كتمن، فهن لا يؤمن بالله واليوم والآخر ، اذ ليس من شأن المؤمنات هذا الكتمان ، وجيء فى هذا الشرط بان ، لانها أصل أدوات الشرط ، ما لم يكن هناك مقصد لتحقيق حصول الشرط فبوتى باذا ، فاذا كان الشرط مفروضا فرضا لا قصد لتحقيقه ولا لعدمه جيء بان ، وليس لان هنا شيء من معنى الشك فى حصول الشرط ولا تنزيل ايمانهن منزلة المشكوك ، لانه لا يستقيم » (٢٣) ٠

وفى اصطفاء قوله (لا يحل لهن) للاعراب عن النهى انباء بأن ذلك مما لا يحتمل التوقف فى دلالته على التحريم القاطع وان الحكم فيه معصوم من احتمال الوجوه التى يمكن حسبانها فى صيغة النهى الصريح ، فقطيعة الدلالة فى (لا يحل) اليق بالسياق هنا من ظنية الدلالة التى تكون حينا فى صيغة (لا تفعل) فان المقام للاعراب عما به استقامة حياة الأمة فى علائق الزوجين حين يكون شقاق كيلا يستحيل الشقاق الى عداء يرتع فيه المردة ، فتفسد حياة الأمة ٠

---

(٢٣) التحرير والتنوير ٢/٣٩٢ ٠

والقرآن يعرب عما تقوم عليه الحياة فى حال التدافع بين افرادها مثلما يعرب عما تقوم عليه فى حال الوفاق ، فانهما معا فطرة لا تخلو منهما حياة ، وحيث جاء نفى الحل فى القرآن فمآل المعنى الى الابلاغ فى النهى عما نفى حله .

* ومما سبق ذكره فى الخبر المعرب عن الامر ، وفيه ما يعرب بالخبر عن النهى قوله تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن اراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لاتكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ... » الآية (البقرة /٢٣٣) .

هو فى مساق ما جاءت له الآيات الآنف ذكرها من تبيان الهدى فيما يقع من مفاصلة بين الزوجين وما لكل على الآخرة ، فكان فى صدر الآية تبيان حق الوليد على امه وأبيه مضمنا تبيان حق كل من الوالدين فى هذا ثم جاء قوله (لا تكلف نفس الا وسعها) فى صورة خبر يراد به النهى عن أن يكلف احدهما الآخر ما ليس فى وسعه ، فالزوج منهى عن ان يكلف الام ما ليس فى وسعها فتلزم بالارضاع ولا تعطى حقها . وهى منهية عن ان تكلف الاب ما ليس فى وسعه فتمتنع من الارضاع أو تطلب فوق ما تستحق ، فهو تشريع ينهى عن التكليف بما لا يطاق فى شتى شئون الحياة عامة وفى هذا المقام خاصة ، فهو تفسير لقوله (بالمعروف) .

فان جعلناه تعليلا له كان جملة خبرية لفظا ومعنى اى وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لأنه لاتكلف نفس الا وسعها ، وفى الوجهين ابلاغ فانه يفهم بدلالة الاشارة أنه اذا ما كان علة ايجاب رزقهن وكسوتهن بالمعروف انه تقرر عدم التكليف الا بما يطاق فذلك التكليف مما لا يجوز وكانه مسلمة يعلل بها ، فالوجهان وان اختلفا مسلكا فانهما يتلاقيان غاية .

وقوله (لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده) فيه تصريح بما فهم تضمنا مما قبله ، وهو تفصيل له وتقرير كما لا يخفى ، وفي قوله (لاتضار) وجوه من الأداء ، فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي برواية قتيبه برفع الراء من تضار وقرأ الباقون بالنصب ٠

النصب على ان (لا) ناهيه والفعل مجزوم ثم فتحت الراء لالتقاء الساكنين (لا تعض زيدا) بفتح الضاد ، لان المدغم ساكن فالفتحة للتخلص واختيرت لانها أخف الحركات ٠ وقراءة الرفع على ان (لا) نافيه فهو خبر منفى فى معنى النهى (٢٤) فقراءة الفتح تفسير لمعنى الرفع فى الأخرى والقراءات يفسر بعضها بعضا ، واختلاف القراءتين فى الصورة آنس باختلاف أحوال الازواج ، فحينا يكون الخلاف بين الزوجين يسيرا فتكون صورة النهى الصريح فى قراءة الفتح آنس بحالهما وحينا يكون الخلاف بالغا فتكون صورة النهى المعرب عنه الخبر آنس بحالهما فى الابلاغ فى نهيهما عن المضادة ٠

❊ ومما هو ظاهر فى الأعراب عن النهى بصورة الخبر المنفى قوله تعالى : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يأولى الألباب » (البقرة /١٩٧) ٠

جاءت الآية فى سياق تبيان الهدى فى شعيرة الحج فنص على زمنه ليتخذ العباد أهبة القيام بما هو رئيس فى تحقيق صحته وقبوله ، ثم اعلن أن من فرض الحج وعزم عليه فى ذلك الزمن كان عليه ان لا يرفث ولا يفسق ولا يجادل ، وهى ثلاثة أمور يرمز بها الى كل ما فيه مفسدة لثمرة الحج من ابلاغ التجرد من الأغيار الى الله عز وعلا ، فمن اعتصم

---

(٢٤) الحجة لابى على الفارسى ٢/٢٥١ - ٢٥٢ ٠
التبيان فى اعراب القرآن للعكبرى ١/٩٧ ٠

مما هو من باب الرفث والفسوق والجدال ، واقدم على فعل الخيرات فقد فعل ما به تقبل الصالحات .

ولما كان السياق للتطهير من كل ما فيه اشتغال بالاغيار عن الله عز وعلا جاء النهى عن تلك المفسدات فى صورة نفى لها ، ففى هذا الاخراج البيانى ابلاغ فى الحث على القيام بحق ذلك وأن مقتضى الفطرة ابراز العبد تلك المهلكات فيما لا يكون منه لا فيما ينهى عنه حتى يكون عند حسن ما أخبر عنه لا عند حد ما كلف به .

وفقه دلالة الخبر المنفى فى الآية على النهى حاضر فى فهم السلف ، وذلك مانراه من اعتراض بعضهم على « ابن عباس » حين انشد بيتا وهو محرم فيه ذكر الجماع فقيل له : ترفث وانت محرم ؟ فقال انما الرفث ما كان عند النساء (٢٥) . فدل على انهم فهموا النهى من النفى فى (فلا رفث) و « ابن عباس » لم ينقض الفهم ولكنه قيد الحكم بعد أن فهموا أنه مطلق .

وفى اداء قوله « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال » وجوه .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ويعقوب بالرفع فى (فلا رفث ولا فسوق) مع التنوين و (ولا جدال) بالنصب .

وقرأ ابو جعفر بالرفع والتنوين فى الثلاثة .

وقرأ الباقون من العشرة بالنصب فى الثلاثة (٢٦) .

اما قراءة ابن كثير وابى عمرو ويعقوب بالتفريق بين (لا رفث ولا فسوق) وبين (لاجدال) فهى على أن (لا) بمعنى « ليس » .

---

(٢٥) الحجة لأبى على الفارسى ٢/٢١٩ - ٢٢٠ ، والمحرر الوجيز لابن الوجيز لابن عطية ٢/١٢٢ .

(٢٦) المبسوط لابن مهران ص ١٢٩ ، الحجة لابى على ٢/٢١٨ - ٢١٩ .

فالمعنى لا يكون رفث ولا فسوق فهو منهى عنه فى صورة الخبر المنفى ، فلا يكون النظم فيهما اخبارا بانتفائهما بل هو الى النهى عن وقوعها . وقوله (لا جدال) (لا) فيه نافية للجنس والخبر قوله (فى الحج) والنظم فيه للاخبار بانتفائه ، فهو جدال خاص بما كان من قريش قبل نزول الآية ، اذ كانت تقف بالمشعر الحرام خلافا لسائر العرب فلما نزلت ارتفع الجدال أى الخلاف فى هذا فكان قوله (ولا جدال فى الحج) اخبارا بذلك الانتفاء (٢٧) وتكون «الواو» فى «ولا جدال فى الحج » أما استئنافية أو عاطفة خبرية لفظا ومعنى على خبرية لفظا انشائية معنى عند من لا يقول بمنع العطف بين الانشاء والخبر . وفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » » (٢٨) اعراب عن وجه الدلالة فى هذه القراءة فانه قد أشترط فى الحديث عدم الرفث وعدم الفسوق ولم يذكر الجدال مما يدل ظاهره على أن الجدال ليس مناط النهى فى الآية بل هو مخبر بارتفاعه بعد نزول الآية فهو الى جدال خاص كان من قريش .

وأن ذكر ان « الطيبى » جعل عدم ذكره فى الحديث من قبيل الاكتفاء (٢٩) .

---

(٢٧) الكشاف ٣٤٧/١ ، البيان فى غريب اعراب القرآن لابن الانبارى ١٤٦/١ .

(٢٨) التبيان للعكبرى ٨٦/١ ، ابراز المعانى لابن شامة ص ٣٥٩.

(٢٨) البخارى : الحج ـ فضل الحج المبرور

(٢٩) فتح البارى ٢٩٩/٣ (ط سنة ١٤٠٢ دار احياء التراث العربى بيروت ـ مصورة عن ط سنة ١٣٤٨ القاهرة .

واما قراءة الرفع فى الثلاثة أو النصب فى الثلاثة فالنظم فيهما نفى أريد به النهى وأن اختلف نوع (لا) فيهما ، ففى الرفع (لا) بمعنى (ليس) وفى النصب (لا) نافية للجنس ، وقوله « فى الحج » خبر فى القراءتين .

* ومن هذا الضرب قوله تعالى : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (التوبة /١١٣) .

يقضى السياق العام لسورة التوبة والبراءة من أهل الشرك والنفاق والمفاصلة بينهم أن يكون النفى فى هذه الآية على غير ظاهره ، أى ليس اخبارا بأن ذلك لا يكون على نحو ما هو ظاهر فى قوله تعالى : « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » (آل عمران /١٤٥) وقوله تعالى : « ما كان الله ليضل قوما بعد اذهداهم » (التوبة/ ١١٥) .

بل هو مصروف عن ذلك الى معنى النهى عن ايقاع الفعل الواقع فى حيز النفى فهو نهى للنبى صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا عن الاستغفار للمشركين ، فكأنه قيل : لا تستغفر أنت ومن معك من الذين آمنوا للمشركين ولو كانوا أولو قربى .

روى البخارى عن سعيد بن المسيب عن أبيهقال لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاستغفرن لك ما لم أنه عنه فنزلت : ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (٣٠) .
فقوله (ما لم انه عنه) مفصح عن أن قوله (ما كان للنبى) نهى بالغ عن الاستغفار للمشركين .

---

(٣٠) البخاري : التفسير - سورة التوبة (فتح البارى ٨/٢٧٤) .

* ومن هذا الباب قوله تعالى « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما » (الاحزاب /٥٣) .

لما كان السياق العام للمعنى فى سورة « الاحزاب » انما هو التشريف للنبى صلى الله عليه وسلم ، ومن التشريف له النهى عن الايذاء العام ومنه البقاء فى بيته ودخوله الا باذنه ، اتبع ذلك بالنهى عن أمر أشد ايذاء له صلى الله عليه وسلم : عن نكاح ازواجه من بعده وفى أرداف النهى عن الدخول بغير اذن والمكث بالنهى عن نكاح أزواجه ترق فى الهدى والتأديب للأمة ، ولما كان الأول أدنى أيذاء والآخر أعلى وأنكى كان الأول نهيا صريحا والآخر نهيا فى صورة نفى (ما كان لكم) ففى هذا التركيب دلالة على الحظر المؤكد ، فادخال النفى على (كان) والاتيان باللام فيه اعراب عن ان ذلك لا يكون فى منطق الفطرة ، وأن ذلك مما لا يحتاج أولو النهى التصريح فيه بنهيهم عنه ، اذ هم معرضون عنه جبلة ، وفى اصطفاء وصف الرسالة فى قوله (تؤذوا رسول الله) فى مقابل اصطفاء وصف النبوة فى الآية السابقة (لا تدخلوا بيوت النبى) اعراب عن أن الاعتصام من التردى فى تلك المزلقة انما هو شكر عملى مستحق لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قام به من تبليغ الرسالة ، فحقه الا يؤذى فى جميع شأنه ، وفى أزواجه خاصة ، ولذا كان التأكيد الأعظم البادى من قوله (أبدا) وقوله (ان ذلكم كان عند الله عظيما) بكل ما فيه من عناصر التوكيد افرادا وتركيبا ، وفى اصطفاء وصف النبوة فى قوله (لا تدخلوا بيوت النبى) اعراب عن أن ذلك الفعل المنهى عنه وهو الدخول بغير اذن فيه تشويش على الفهام بحسن التلقى ، وان من حقه ، بل من حق الدعوة والأمة ألا يشغل عن القيام بحق تلقى الأنباء عن الله رب العالمين .

والنظر فى هذا النمط من النهى البادى فى النفى الداخل على فعل الكون ودخول اللام على الاسم المنهى عن الفعل أو على الفعل المنهى عنه يهدى الى أن ذلك فيما كان المنهى عنه ذو خطر بالغ اذا لم ينته

عنه ، فكان احق بالابلاغ فى الزجر عنه والدفع والنهى عن التردى فيه ٠

واخراج النهى فى صورة الخبر المنفى عموما فى ابلاغ فى النهى عن ذلك المنفى ، بل ان أبا الحسن الحرالى « ت ٦٣٧ » نيذهب الى أن النهى فى صورة النفى فيه مناقضة تهدم لا مخالفة تبعد صاحبه عن معام من مقامات الطاعة ٠ يقول فى آية « الحج » الآنف ذكرها « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » : « وفى وروده نفيا لا نهيا اعلام بأنه مناقض لحال « الحج » حين نفى ، لأن شأن ما يناقض أن ينفى . وشأن ما لا يناقض ويخالف أن ينهى عنه ، كما قال فيما هو قابل للجدال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » (العنكبوت /٤٦)

وبين خطاب النهى والنفى فرت فى الأحكام الشرعية ينبنى الفقه فى الأحكام على تحقيقه فى تأصيلها والتفريع عليها »(٣١) ٠

ومن خلال التبصر فى كثير من المنهيات الآتية فى صورة نفى بدا لى أن تلك المنهيات ذات خطر عظيم فى الأمة فردا وجماعة اما لذاتها أو لمقامها وملابساتها ، بل ان صورة النفى المعرب عن النهى لتختلف باختلاف منزلة المنهى عنه ، فقوله ما كان كذا ليفعل أو ما كان له أن يفعل ، غير قوله (لا يحل لك) وغير دخول (لا) النافية على الفعل المراد النهى عنه ، غير دخول (لا) النفية على الاسم المراد النهى عن ايقاعه . فهى أنماط تختلف باختلاف المنهى عنه فى ذاته أو فى سياقه النظمى أو المقامى المشتمل على أحوال من ينهى وزمان النهى ومكانه والأحوال المكتنفة ذلك كله ٠

واذا ما كان « الحرالى » ذاهبا الى ما رأيت من دلالة النفى على الابلاغ فى النهى عما فيه مناقضة تهدم وكان جمهور العلماء على القول بخروج النهى فى صورة الخبر فان « أبا بكر ابن العربى الفقيه المالكى » (ت٥٤٣) وأبا القاسم السهيلى (ت ٥٨١) يذهبان الى أن الخبر فى بيان الكتاب

---

(٣١) نظم لدرر للبقاعى ٣/١٥٢ ـ ١٤٣ (ط الهند سنة ١٣٩١هـ)

والسنة خصة نوعان : خبر وجودى ، أى خبر عن واقع موجود من قبل نزول القرآن وورود السنة • وخبر تشريعي لا يراد به الاعلام بوقوع شيء بل يراد به ان كان اثباتا الاخبار بتشريع وجوده ممن أسنداليه وإن كان نفيا الاخبار بتشريع الامتناع عنه ممن أسند اليه •

والآيات التى قيل أنها خبر أريد به الامر في الاثبات أو النهى فى النفي انما هى من قبيل الخبر التشريعى أى الخبر عن حكم الشرع ، وما استقر فيه وثبت فى الديانة التى نحن مأمورون بها على الجملة ، والخبر التشريعى لا يلزم عليه الكذب ان لم يتحق فى الاثبات أو ان تحقق في النفي ، كما يذهب اليه القائلون بأنه خبر أريد به الأمر ، ولا يفرقون بين الخبر الوجودى والخبر التشريعى ، بينما التفريق بينهما فى بيان الشريعة كتابا وسنة هو الحق ، ومن ثم كان تخلف الخبر الشرعى أمرا مشهورا فكم من مطلقة أو متوفى عنها زوجها لا تتربص بنفسها مقدار العدة ، وكم من حاج يرفث ويفسق ويجادل ، وذلك كله معصية ممن أخبر عنه تشريعا وليس كذبا ، فان تخلف الخبر الوجودى كذب وتخلف الخبر التشريعى معصية(٣٢) • ؛

والنظر فيما ذهب اليه « ابن العربى » و « السهيلى » وما ذهب اليه الجمهور فى هذا يهدى الى أن الخلاف بينهما قريب ، فان الامامين لا ينكران أن مآل الخبر التشرعى الأمر بما كان منه فى سياق الاثبات والنهى عما كان منه في سياق النفي ، فانها لما كانت اخبارا عما استقر في الشريعة ونبت فى الديانة التى نحن مأمورون بها على الجملة ، كنا مأمورين بتلك الأفعال ، وان لم تكن على صيغ الأمر والنهى فى المقال كما يقول السهيلى•

---

(٣٢) ينظر : أحكام القرآن لابن العربى ١/١٣٤ ، ١٨٦ . ونتائج الفكر فى النحو للسهيلى ت/ الدكتور محمد البنا ص ١٤٧ (ط / دار الرياض) وعروس الأفراح للسبكى (شروح التلخيص) ٢/٣٤٠ ، وبدائع الفوائد لابن القيم ١/١٠٣ ــ ١٠٤ •

فان قلنا ان ما عليه الامامان من قبيل الاخبار التي لا يراد فائدتها بل لازم الفائدة فهو عند المحققين من علماء البيان من قبيل الكناية المركبة أو التعريض المركب اما ما عليه الجمهور فهو مما يسمى بالمجاز المرسل المركب وقد بحث فيه بعض المحققين(٣٣) .

---

(٣٣) ينظر : المطول /٣٨٠ ، الأطول ٢٥٢/١ . شرح العصام للسمرقندية وحاشية حفيده والصبان عليه ص ٧٧ وما بعدها (ط سنة ١٢٩٩ ـ القاهرة) والرسالة البيانية وتقرير الانبابي عليهـا ص ٤٤٩ ومـا بعـدها .

(ثانيا) اسلوب الاستفهام المعرب عن معنى الأمر أو النهى

(أ) (الاستفهام المعرب عن الأمر) :

غير خفى أن كلا من الاستفهام والأمر من باب طلب ايجاد الممكن غير الحاصل عند الطالب ، الا أن محل الايجاد فى كل منهما مختلف كما أن لكل صيغة تدل عليه ، حصول صورة الشيء في الذهن اى طلب حصول مدخولها الممكن أو مفاده خارج الذهن ، فيؤتى أسلوب الاستفهام حينذاك ما تؤتيه صيغة الامر من دلالة على حقيقة معنى الأمر ، بل وزيادة عليه أحيانا كثيرة ، وجمهور البلاغين والمفسرين على ذلك (١) ٠

وهذا ظاهر فى دلالة دخول (هل) على جملة اسمية ، ووجه ذلك أنه لما كانت (هل) مختصة بالتصديق ، وكانت مخصصة الفعل المضارع بالاستقبال كان لها مزيد اختصاص بالاشياء التى دلالتها على الزمان أظهر وأجلى ، فاختصاص (هل) بالافعال أقوى من اختصاص غيرها بها ، ودخولها على الفعل أولى من دخولها على غيره ، ولذا قبح عندهم (هل زيدا ضربت) فاذا عدل بها عن الدخول على الفعل عدولا غير قبيح ، بألا يكون فى حيزها فعل الى الدخول على جملة اسمية صدرا وعجزا فان ذلك العدول يفيد الاعتناء بالمعدول اليه ، لأنه يظهر ما سيتجدد ، وهو مضمون الفعل فى صورة الثابت ، وهو الجملة الاسمية ، وهذا الاظهار أدل على كمال العناية بحصول المطلوب من ابقائه على أصله ، ذلك أن الطالب للشيء اذا كثرت رغبته فيه عبر عنه بما يقتضى ثبوته لاظهار أن من شأنه أن يكون حاصلا ، وأن على المطلوب منه ذلك أن يعمل على تحقيقه والاسراع فى ذلك ٠

---

(١) معانى القرآن للفراء ١/٢١٢ ، مجالس ثعلب ٢/٥٨٨ المطول /٢٣١ ، المصباح /٨٤ ، الكشاف ٢/١١٢/ المحرر الوجيز ٥/١٨٥ ، التبيان للعكبرى ١/١٢٩ ، البيان لابن الانبارى ١/١٩٦ البرهان للزركشى ٢/٣٣٩ معترك الاقران للسيوطى ١/٦ التحرير والتنوير ٣/٢٠٢ ، ٧/٢٨ ، ١٧/١٧٢ ، ١٦/١٥٨ ٠

* من هذا قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون» (المائدة /٩١) ٠

فى مساق سورة المائدة المقصودة للدعوة الى الوفاء بالعقود التى عقدها الله مع الذين آمنوا ، فهى سورة مفعمة بالحديث عما أحل وحرم ، وقد جاء فيها النداء على الذين آمنوا مشفوعا ببيان ما أحل الله وما حرم ست عشرة مرة (٢) وهذه الآية هى النداء الحادى عشر ٠ كان الأمر فيها باجتناب أربعة أشياء جسام فى حياة العربى : الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، واصفا لها بأنها « رجس من عمل الشيطان » وفى هذا وطاء وتهيئة لتتلقى النفوس الامر باجتنابه على قدر ما كانت له عاشقة ، وفيه غارقة ، وفى الأمر بالاجتناب ابلاغ فى الأمر بتركها يتناغى مع ما يعرب عنه قرنها وجمعها فى غمد : خمر وميسر وأنصاب وأزلام ، والاخيران شرك عظيم ، وكان كل واحد من هذه الأربعة باب الى ما بعده فالخمر أم الكبائر ومن وقع فيها فى المقامرة فكان أقرب الى ولوج باب الشرك بالله رب العالمين ، وقد جاءت الآية (انما يريد الشيطان ٠٠٠) مبينة أن الخمر والميسر أداة الشيطان للايقاع فى العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، فاغلاق

---

(٢) ورد فى الآيات رقم/ ١ ، ٢ ، ٦ ، ٨ ، ١١ ، ٣٥ ، ٥١ ، ٥٤، ٥٧ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ٠

ولم يبلغ فى سورة غيرها ما بلغ نداء الذين آمنوا فيها ففى البقرة احدى عشرة مرة ، وفى آل عمران سبع مرات وفى النساء عشر مرات وفى الانعام والاعراف لم يرد قط وفى كل من الانفال والتوبة ست مرات ٠٠٠ (الخ) ٠

بابهما والاعراض عنهما والابلاغ فى اجتنابهما أدعى الى الابتعاد عن الشرك بالله ، ومن ثم جـاء الأمر بالانتهاء عنهما فى صـورة معربة عن عظيم استحقاقه والحرص عليه ، فجاء فى صورة استفهام .

هذا الاسفهام المعرب عن الامر بالانتهاء أمرا لازما يتناسب فى ذلك مع ما يعرب عنه النداء عليهم بعقد الايمان (يا أيها الذين آمنـوا) ومع اصطفاء (انما) ومع ترتيب هذه الموبقات وتصديرها بالخمـر ووصف هذه الأفعال بأنها رجس من عمل الشيطان والأمر باجتنابها وتعليله بالفلاح لمن أطاع فاجتنب ، ومع تبيان أن الخمر والميسر من أداة الشيطان الفاعلة فى تدمير المرء والأمة .

فأعلى صور الأمر أنسا بهذا السياق انما هو الصورة التى جاء عليها أولا بالتصريح بالأمر بالاجتناب الذى هو أبلغ فى الأمـر بالمبـاعدة من من قولنا (اتركوه) فقد يترك المرء الشيء وهو على مقربة منه بينمـا المجانبة تخل بالكلية ومفاصلة بعيدة الشقة اذ يكون كل منهمـا فى جـانب (٣) .

وجاء الأمر ثانيـا فى كل صورة الاستفهام عن الانتهـاء المعطوف بفاء السببية اعرابا عن آن كل ما مضى داع حثيث الى وجـوب الالتـزام بالانتهاء عما سبق ذكره من موبقات ، فكان « قوله : «فهل أنتم منتهون»

---

(٣) جاء الأمر بالاجتناب فى القرآن فيما هو بالغ الفساد (واجتنبوا الطاغوت = النحـل / ٣٦) ، (فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور = الحج / ٣٠) (اجتنبوا كثيرا من الظن = الحجرات /١٢ وجاء دعاء ابراهيم (واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام = ابراهيم / ٣٥) .

فهذا الفعل امرا وخبرا انما أوقع على ما هو بالغ الفساد (النساء/ ٣١ ، الزمر /١٧ ، الشورى /٣٧) .

من أبلغ ما ينهى به كأنه قيل قد تلى عليكم ما فيهما من انواع الصوارف والموانع ، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا » (٤) ٠

وفى جمع الخمر والميسر أولا الى الانصاب والازلام ، ثم افراد الخمر والميسر ثانيا ابلاغ فى تصوير ما فى الخمر والميسر فى المفاسد التى هى الى ما فى الأنصاب والازلام أقرب ، والمخاطبون كانوا قد تخلوا تماما عن لأنصاب والأزلام ، ولم يبق فيهم منهما شيء ألبته لمنافساته عقد الايمان الذى عقدوه ، فأعرب عن أنهم مطالبون بالتخلى عن الخمر والميسر تخليهم عن الأنصاب والأزلام ثم أفرد هما بالذكر ليعدم أن المقصود بالذكر الخمر والميسر ، فطالبهم بالانتهاء عنهما انتهاء لا يقل عن انتهائهم عن الأنصاب والأزلام ، ولذا كانت مقالة « عمر بن الخطاب » حين سمع هذا الاستفهام (فهل أنتم منتهون) : انتهينا (٥) ٠

* ومن هذا الباب قوله تعالى :

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين * فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا الله فهل أنتم مسلمون » (هود /١٤ - ١٤) ٠

فى سورة « هود » المكية النزول والمنصوبة لاثبات تنزل القرآن من عند الله ، ووصفه بالاحكام والتفصيل والاعجاز الذى لا يطاول جاء كالتحدى الذى جاء فى سورة « يونس » : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (يونس

---

(٤) الكشاف ٦٤٣/١ ٠

(٥) سنن أبى داود : الأشربه : باب فى تحريم الخمر ٣١٨/٢ ،

/٣٨) الا أنه في سورة « هود » كان تحديا بعشر سور مفتريات ، فالمفارقة بين التحديين واضحة فيما تحدى به (٩) .

وفي قوله (فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا) تفريع على قوله (وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) فالاعلى أن المخاطب في الآيتين واحد ، وهم المعاندون المتحدون . أى فان لم يستجب لكم من تدعونهم من دون الله لتأتوا بعشر سور مثله مفتريات فاعلموا أيها المعاندون أن القرآن ما نزل الا بعلم الله وأنه لا اله الا هو جل جلاله ، فذلك العلم انما هو ثمرة لازمة من اعراض من تدعونهم عن الاستجابة لكم لعجزهم عن أن يعينوكم عن الاتيان بعشر سور مثل القرآن مفتريات. وفرع على قوله (فاعلموا) قوله (فهل أنتم مسلمون) أى فـأن لم

---

(٩) الجمهور على ان سورة هود نزلت من بعد سورة (يونس) وكان مقتضى الظاهر ان يكون التحدى أولا بعشر سور وآخرا بسورة مراعاة لظاهر التدرج في التحدى يقول برهان الدين البقاعى في سورة هود : « تحدوا في سورة يونس عليه السلام بسورة واحدة مثل جميع القرآن غير معتنين فيها بالتفصيل الى السورة تخفيفا عليهم واستهانة بأمرهم فلما عجزوا تحدوا بعشر مفتراة ، ولما خفف عنهم فيها التقيد بصدق المعنى وحقيقة المباني الزمهم بما خففه عنهم في (يونس) من التفصيل ولم يخلهم من التخفيف اشارة الى هوان أمرهم واحتقار شأنهم بأن جعلها الى عشر فقط ، فلما عجزوا اعيد في المدينة الشريفة لأجل أهل الكتاب تحديهم بسورة أى قطعة واحدة مقرونا ذلك بالاخبار بدوام عجزهم عن ذلك في قوله تعالى في (البقرة) فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ـ الآية ، فالمتحدى به في كل سورة غير المتحدى به في الأخرى » .

نظم الدرر جـ ٢٤٩/٩ ، وانظره جـ ١٢٣/٩ ، جـ ١٦٢/١ ـ ١٦٣ ، جـ ٥٠٨/١١ ، ٥٠٩ ، جـ ٢٥/١٩ .

يستجيبوا لكم فاعلموا ، وأسلموا فهو استفهام فيه الحث البالغ على ايقاعهم الاسلام أى الدخول فى الاسلام ففيه تقرير لمعنى الامر فى (فاعلموا) يضيف الى العلم بذلك الاقرار والتسلم والالتزام الذى هو مقتضى الأمر بالاسلام ، والاتيان بالأمر فى صورة الاستفهام بهل الداخلة على جملة أسمية أدل على طلب الاسلام وكمال العناية بحصوله من الامر به بصيغته (فأسلموا) ومن دخول (هل) على الفعل (فهل تسلمون) ذلك أن الطالب لشىء اذا ما أحب شيئا عبر عنه بما يقتضى ثبوته اعرابا عن ان ذلك مما شأنه أن يكون حاصلا لعظيم مقتضياته وجليل دواعيه ٠

والمقتضيات والداواعى لايقاع اسلامهم واعترافهم بأن القرآن حق من عند الله قد تحدر بها السياق الذى أقيم فيه قوله (فهل أنتم مسلمون) على نحو لا يبقى معه على العناد الا من ختم الله على قلبه ، وفى هذا من الحث والالهاف والتهييج ما فيه ٠

وهذا الذى اصطفيته من أن الضمائر فى قوله (لكم) وما بعده للمعاندين هو الوجه الأعلى وهناك وجه آخر : أن يكون الضمير (الواو) فى (فان لم يستجيبوا) راجعا الى المعاندين والضمير فى (لكم) للرسول صلى الله عليه وسلم والجمع للتعظيم أوله وللمؤمنين لأنهم أتباع له صلى الله عليه وسلم ، وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم أن لاينفكوا عنه صلى الله عليه وسلم ، ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه فى الجهاد ، وكذلك الضمير فى (اعلموا) راجع الى الذين آمنوا أى دوموا على العلم وازدادوا يقينا وثبات قدم أنه من عند الله ، وكذلك الضمير فى (فهل أنتم مسلمون) أى مخلصوا الاسلام أو ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقى فان مقامات الطاعة حد كثيرة ٠ واستظهر الوجه الأول الذى اصطفيت أبو حيان وقال عنه الزمخشرى أنه (وجه حسن مطرد) ، وذهب الشوكانى الى أن فيه قوة وضعفا : قوته من اتساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها الى تأويل

وضعفه لما فى ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه الى التكلف (١٠) ٠

والحق أنه لاخفاء ولا تكلف لأن من تحدى ودعى الى الاستعانة بمن يستطيع أن يدعو ثم عجز هو ولم يستجب له من دعاه كان ذلك دالا على العلم بأن ما تحدى به انما هو من عند الله وأن الذى أنزله اله واحد لا شريك له فوجب اسلام الوجه له ٠

* وجاء الأمر بالاسلام أيضا بقوله (فهل أنتم مسلمون) في سورة (الانبياء) : قال تعالى :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين * قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون * فان تولوا فقل آذنتكم على سواء وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون » (الأنبياء /١٠٨) ٠

يكاد يكون المعنى المهيمن على سورة الأنبياء معنى التوحيد والدعوة اليه وأنه الصراط المستقيم ، فيكاد يكون قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش العظيم » (الآية /٢٢) هو محور المعنى الرئيس فى السورة ، تدور فى فلكه المعانى الجزئية للآيات ، وقد صرح فيها بمعنى الواحدانية فى غير موضع ٠

وجاء فى ذروة بناء المعنى فى هذه السورة قوله : « قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون » من بعد أن فرز ان فيما ذكره فى هذه السورة من الأخبار والقصص والمواعظ والوعد والوعيد والبراهين القاطعة بلاغا عظيما لقوم عابدين معترفين بواحدانية الله ،

---

(١٠) ينظر : الكشاف ٢٦٢/٢ المحرر الوجيز لابن عطية ١١٨/٩ ـ ١١٩ غاية القاضى للشهاب ٨٢/٥ البحر المحيط ٢٠٨/٥ ، فتح القدير ٤٨٦/٢ ، التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢١/١٢ ، هل الاستفهامية للدكتور صبحى رشاد ص ٦٣ ـ ٦٦ ٠

ومن بعد أن قرر أن ارسال النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة الخاتمة الى الاقرار بالوحدانية انما هو رحمة للعالمين جميعا ، اذ كانت دعوته عامة بينما كانت دعوة الأنبياء من قبله الى التوحيد مقصورة على أقوامهم ومن هنا كان قوله « قل انما يوحى الى ... الآية » تلخيص جامع أصول دعوته العامة ودعوة الأنبياء من قبله ، وجاء قوله « انما يوحى الى .. » تحتمل فيه (ما) فى (انما) بكسر الهمزة أن تكون زائدة كافة (ان) وأن تكون موصولة أى ان الذى يوحى الى انه ما الهكم الا اله واحد ، والاعلى أن تكون (ما) كافة و (انما) مفيدة حصرا فقد جاء فى السورة نفسها ما هو صريح فى هذا « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون » (الانبياء /٢٥) واقيم النفى والاستثناء فى هذه الآية فى مقام مماثل للمقام الذى أقيمت فيه (انما) المكسورة و (أنما) المفتوحة ، فكان فى هذا اعراب عن افادة (انما) المكسورة والمفتوحة القصر .

وفرع على ذلك الابلاغ فى طلب الدخول فى الاسلام فان كل ما سبق بيانه دافع وحاث على ذلك الدخول ، فقد بين لهم بالدلائل والبراهين المنصوبة فى هذه السورة ما يقضى الانصاف معه الدخول فى الاسلام وبين لهم عقبى الأمم التى لم تسلم الوجه لله ، فتذعن بالوحدانية والطاعة ، فلم يبق امامهم من بعد ذلك الا أن ينصفوا ، فيدخلوا فى الاسلام ، فجاء هذا الطلب فى صورة استفهام بهل الداخلة على جملة اسمية ابلاغا فى الدعوة الى تحقيق ما دخلت عليه (هل) وفيه تسفيه لمن لم يقبل على ذلك ، ولذا جاء من بعد ذلك قوله تعالى : « فان تولوا فقل آذنتكم على سواء ، وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون » فان فيه من التهديد ما فيه لمن لم يستجب لما طلبه بقوله « فهل انتم مسلمون » .

* ومن هذا الباب فى السورة نفسها قوله تعالى :

« وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما

وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون » (الأنبياء /٧٨ـ ٨٠) .

فانه من بعد أن بين بعض ما أفاضه على عبديه « داود وسليمان » من نعمة وما علمه داود من علم أمتد نفسه لمن بعده من صناعة الدروع لتحصتنا من بأسنا طلب منا شكره على تلك النعمة البالغة ، فالخطاب في قوله (أنتم) هولنا معشر المسلمين ، ولا غرابة في أن طلب منا الشكر على نعمة أنعم بها على « داود » ، لأن نفع هذه النعمة ممتد الينا تتمتع به أكثر مما تمتع به قوم « داود » فان تلك الصنعة قد بلغت فى عصرنا مبلغا عظيما فى الاتقان والجودة فكان الشكر عليها منا أبلغ وطلبه منا أعظم (١٤) .

وهذا ما يتناغى مع اخراج الأمر فى صورة الاستفهام لهل الداخلة على جملة أسمية لأن تلك النعمة جد عظيمة ففيها وقاية من شرور البأس واختيار كلمة (بأس) هنا ذو دلالة واضحة على الشدة والنكاية . وما كان كذلك كان الشكر عليه أوجب فاقتضى أن يكون الحث عليه أبلغ فكانت صورة معنى الأمر به هنا على ما جاء عليه النظم القرآنى ، اذ هو الأدل على ذلك ، كما سبق بيانه من قبل فى مثل هذا.

* ومن هذا الباب ما يحكيه القرآن فى سورة الشعراء :

« قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم * فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل انتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين » (الشعراء /٣٤ ـ ٤١) .

---

(١٤) الفتوحات الالهية للجمل ١٣٩/٣ ، التحرير والتنوير ١٢٢/١٧

فان قولهم للناس : هل أنتم مجتمعون ظاهر الدلالة على حثهم على المبادرة الى الاجتماع (١٦) وفى هذا الحث والاستعجال على الاجتماع اعراب عما يسعى اليه فرعون من تكثير سواد المؤيدين للسحرة أرهابا لموسى وايقاعا للخوف فى فؤاده فلا يكاد يستطيع غلبة عليهم ، ولذا اتبعوا طلبهم الاجتماع رجاءهم اتباع ما يسعى اليه السحرة بسحرهم من تكذيب « موسى » عليه السلام ، ولما كانت حاجتهم الى تكالب المؤيدى سحرة فرعون وتجمهرهم جد عظيمة لما يظنون أنه مترتب على ذلك الاجتماع من آثار الانتصار لهم واندحار دعوة « موسى » عليه السلام وكان اخراج طلب اجتماعهم فى صورة استفهام بهل الداخلة على جملة أسمية المعربه عن ضرورة تحقيق هذا المطلوب وأنه مما ينبغى أن يبالغ فى تحقيقه ، كانت صورة معنى الأمر التى جاءت فى النظم هى الآنس بالمعنى والسياق .

* من الاستفهام المعرب عن معنى الأمر قوله تعالى :

« فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين اوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد أهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (آل عمران /٢٠) .

جاء ذلك فى معرض تأكيد أن الدين عند الله الاسلام ، وان الله لن يقبل غيره دينا ، وأن أهل الكتاب يزدادون بمجىء العلم اختلافا . فانكروا الاسلام وحاجوا وجادلوا ، فأمر الله - عز وجل - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلن فى وجوههم أنه أسلم وجهه لله هو ومن اتبعه ، وأمره أن يدعو أهل الكتاب الى الاسلام ، وجاءت الدعوة اليه فى صورة غير صريحة به فلم يقل له : وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلموا .

---

(١٦) الكشاف ١١٢/٣ ، البحر المحيط ١٥/٧ ، نظم الدرر ٣٠/١٤ - ٣١ ، تفسير البيضاوى وحاشية الشهاب عليه ١٢/٧ .

ذلك أن السياق هنا ليس للأمر بالاسلام وطلبه منهم فحسب بل هو له ممزوجا بالاستبطاء والتوبيخ عليه والتعبير بالمعاندة وقلة الانصاف والبلادة وجمود القريحة (١٧) اذا كان مقتضى حالهم وهم أهل كتاب أن يكونوا المسارعين الى اليقين به والذب عنه والدعوة اليه « وآمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » (البقرة /٤١) ، ففي قوله (أأسلتم) ما في قوله (أسلموا) وزيادة يقتضيها المقام يضاف اليه تناغيه مع التهديد البالغ في قوله تعالى من قبله « ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب » وقوله من بعده « وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

وجاء الاستفهام في (أأسلمتم) داخلا على فعل ماض ، ومقتضى ظاهر الدلالة أن يكون داخلا على المضارع ، اذ هو آنس بطلب ما لم يكن من قبل طلبه ، لأن في البيان بالماضي هنا ما ليس في المضارع : ففي البيان بالماضي اعراب عن أن اسلامهم كان ينبغي أن يكون من قبل هذا منذ علمهم بالدعوة ، وأن اسلامهم هو الذي تقتضيه منزلتهم فهم أهل كتاب وعلم به ، ومثلهم في ذلك الأميون كان ينبغي أن يسارعوا الى اعتقاده ونصره لما في ذلك من رفعهم وتشريفهم ، اذ الداعي اليه من أنفسهم وكتابه بلسانهم « فاستمسك بالذي أوحي اليك انك على صراط مستقيم * وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (الزخرف /٤٣ ـ ٤٤) ففي البيان بالماضي تناسق مع البيان بالاستفهام عن معنى الأمر .

* ومن صور الاستفهام المعرب عن معنى الأمر ماثراه في قوله تعالى :

« الا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة » (التوبة ١/٢١) .

---

(١٧) ينظر : معاني القرآن للفراء ٢٠٢/١ الكشاف ٤١٦/١ ، تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب ١٤/٣ التبيان في اعراب القرآن للعكبري ١٢٩/١ البيان في غريب اعراب القرآن لابن الانباري ١٩٦/١ .

قوله (ألا) يحتمل أن يكون (ألا) التحضيضية وهى عند بعض أهل العلم غير مركبة

ويحتمل أن تكون (الا) من همزة الاستفهام و (لا) النافية ، وهذا الاستفهام انكار توبيخى على فعل لم يقع فهو انكار عدم الوقوع . والاستفهام الانكارى فى معنى النفى فاذا دخل على النفى أفاد الاثبات فاقتضى طلب وقوع ما أنكر عدم وقوعه ، لأنه اذا ما كان ترك الفعل منكرا موبخا على عدم وقوعه أعرب ذلك لزوما عن أن ايجاده مطلوب (١٨)

فهو انكار التقاعس عن قتال قوم كان منهم ما يستوجب قتالهم .

وقد سبق هذا الأمر بقتالهم المخرج فى صورة استفهام بأمر صريح بقتالهم ، واردف كذلك بأمر صريح بذلك فانتظمت ثلاثة أوامر بقتالهم جعل مع الأمر الأول والصريح ما يومىء الى استحقاقهم القتال حيث عدل عن الضمير الى اسم الظاهر ، فلم يقل : وان نكثوا ايمانهم من

---

(١٨) ينظر عناية القاضى للشهاب ٢٠٧/٤ .

الزمخشرى يذهب الى ان الهمزة دخلت على (لا) فافادة تقريرا بانتفاء المقاتلة ومعناه الحض عليها على سبيل المبالغة ، فيكاد مآل المعنى يكون موافقا للقائلين بان الهمزة للانكار التوبيخى . (الكشاف ١٧٧/٢) والواقع أن أهل العلم مختلفون فى دلالة الهمزة الداخلة على النفى أتفيد تقريرا أم انكارا ، وأكثر البلاغين على أنها من قبيل انكار ما دخلت عليه الهمزة فيبطل النفى ويعود الأسلوب الى الاثبات فى الكثير الغالب.

راجع المطول ص ٢٣٧ ، شروح التلخيص ٢٩٧/٢ وما بعدها ، دلالات التراكيب ص ٢٤٥ وما بعدها ، عبث الوليد لابى العلاء ص ٢٢١ ، الخصائص لابن جنى ٤٥٧/٢ ، ٢٦٩/٣ ، امالى السهيلى ص ٤٩ .

بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوهم ، بل نادى عليهم بوصف مؤذن بعظيم استحقاقهم القتال (أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم) .

وجاء مع الأمر الثانى البادى فى صورة استفهام بوصف آخر يعلى من الاعلان عن استحقاقهم القتال مع التوبيخ على ترك قتالهم وهم بهذا الوصف ، وهدد على التوجس من قتالهم (أتخشـونهم فالله أحق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين) .

وجاء مع الأمر الثالث الصريح بقتالهم الوعد بالنصر عليهم وتعذيبهم واخـزائهم .

هكذا تتناسق صور الأمر بقتالهم ابلاغا فى الدعـوة الى تحقيقه واعرابا عن أن ذلك مما لا يليق بأحد أن يتقاعس عنه .

* ومن هذا قوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم » (التوبة /١٠٤) .

جاءت هذه الآية من بعد الحديث عن أحوال المنافقين من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، مبينا حال فئة من المسلمين ضعفت همتها ، فخلطت عملا صالحا وآخر سيئا من التخلف عن الغزو وليسـوا من المنافقين منهم أبو لبابة ، والجد بن قيس ووديعة بن حزام ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد النبوى فلما أطلقوا جاءوا بأموالهم يرجـون النبى صلى الله عليه وسلم أخذها منهم فى سبيل الله ليطهرهم فاخبرهم أنه لم يؤمر بذلك ، فنزل (خذ من أموالهم ...) الآية (١٩) .

ولما كان تخلفهم عن الغزو أمرا عظيما فى نفسه بقى فى نفس من غلب خوفه رجاءه شىء من التوجس ألا تكون توبتهم مقبولة فكان الاسـتفهام الداخل على النفى « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده » انكارا لعدم علمهم بذلك معربا عن أمرهم باليقين من ذلك ، فكأنه قيل ليعلموا أن الله هو يقبـل التوبة عن عبـاده ، الا أن اخراج الأمر بالعلم فى صـورة الاستفهام كان فيه مزج الأمر بالتعجب من توقفهم فى عدم العلم بذلك .

---

(١٩) أسباب النزول للواحدى /١٧٤ - ١٧٥ .

وجاء من بعده أمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون فكان فى ذلك مزيد من الترغيب فى العمل الصالح الذى منه التوبة ٠

تخليص القول فى هذا أن الاستفهام الانكارى التوبيخى الداخل على نفى هو على معنى لا ينبغى أن لا يكون ذلك منك ، فكان حثا على الفعل وترغيبا فيه والزاما بتحقيقه ٠

يقول عبد القاهر : واعلم أنا وان كنا نفسر « الاستفهام » فى مثل هذا بالانكار ، فان الذى هو محض المعنى : انه لينتبه السامع حتى يرجع الى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب (٢٠) ٠

ومن دلالات قوله هذا : اما لأنه لم يفعل ما لا يستصوب تركه فاذا روجع فيه تنبه وعرف تقصيره ، وحينئذ يقبل على ايجاد ما أنكر عليه عدم فعله ، وذلك حقيقة معنى الأمر وزيادة ، فهو أقوى فى الدلالة على معنى الأمر من صيغته الصريحة وأوفر ، فان فيه فوق ما فيها والمقامات التى يقوم فيها تعجز الصيغة الصريحة عن أن تقوم فيها فتوفيها الحق ٠

ومجمل القول ومحصله أن أعراب الاستفهام عن معنى الأمر فى الذكر الحكيم كثيرة مواقعه ، ولكنه قد يكون بعض صور الاستفهام دالة على صيغة الأمر وتفسر به غير أنها عند التحقيق لا تكون معربة عن المعنى الحقيقى للأمر الذى نحن بصدر القول فيه وان اعربت عن صيغة الأمر ، وفرق بين الصيغة والدلالة ٠

من ذلك دخول همزة الاستفهام على الفعل (رأيت) فيقال (أرأيت) بمعنى (أخبرنى) ، كما فى قوله تعالى : « قل أرايتم أن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة، أغير الله تدعون ان كنتم صادقين » (الأنعام /٤٠)، فأهل لعلم على أنه بمعنى (اخبرونى) فاذا كانت معه (كاف الخطاب) كما فى الأية فانه تلزم (التاء) حالة واحدة من الفتح والافراد وإن كان

---

(٢٠) دلائل الاعجاز /١١٩ (ت شاكر) ٠

المخاطب غير مذكر أو غير مفرد استغناء بمطابقة (الكاف) لما يراد بها من افراد وتذكير وضديهما ، فان لم يرد معنى (أخبرني) وجبت مطابقة (التاء) لما يراد بها) (٢١) .

وهي حين تفيد معنى (اخبرني) فان ذلك الطلب بالاخبار ليس على حقيقة معنى الأمر التي حققناها من قبل ، بل تكون لمعان أخرى كالتنبيه والتعجيب ... الخ وهي كذلك حيث وقعت بمعنى (أخبرني) في الذكر الحكيم . فقد جاءت في أربعة وثلاثين موقعا منه (٢٢) وبمراجعة التراكيب وسياقاتها تحقق لي أن افادتها معنى (اخبرني) ليس على حقيقة معنى الأمر بالاخبار ، فلم يكن ذلك النمط من الاستفهام مما نحن فيه .

* * *

(ب) (الاستفهام المعرب عن النهي) :

واذا ما كان الاستفهام معربا عن الأمر فانه قد يأتي معربا عن الكف عما دخلت عليه أداة الاستفهام ، فيفيد معنى النهي ، وذلك كما في قوله تعالى : « يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » (آل عمران ٧٠ ــ ٧١) فغير خفي أن القرآن ينكر على أهل الكتاب تلبسهم بتلك

---

(٢١) ينظر : الكتاب لسيبويه ١/٢٣٩ ــ ٢٤٠ (هارون ط ١٤٠٣ ــ بيروت) مجالس ثعلب ٢/٢١٥ ــ ٢١٦ (ت/ هارون) التبيان في اعراب القرآن للعكبري ١/٢٤١ ــ ٢٤٢ ، الكشاف ٢/١٨ ، تفسير البيضاوى ومعه عناية القاضي للشهاب ٤/٥٨ ، البحر المحيط ٤/١٢٤ ــ ١٢٥ .

(٢٢) وردت هذه الصورة في المواقع الآتية : الأنعام (٤٠ ، ٤٦ ، ٤٧) يونس (٥٠ ، ٥٩) هود (٢٨ ، ٦٣ ، ٨٨) الاسراء (٦٢) الكهف (٦٣) مريم (٧٧) الفرقان (٤٣) الشعراء (٧٥ ، ٢٠٥) القصص (٧١ ، ٧٢) فاطر (٤٠) الزمر (٣٨) فصلت (٥٢) الجاثية (٢٣) الأحقاف (٤، ١٠) النجم (١٩ ، ٣٣) الواقعة (٥٨، ٦٣، ٦٨، ٧١) الملك (٢٨ ، ٣٠) العلق (٩ ، ١١ ، ١٣) الماعون (١) .

الأفعال وهم على حال توجب عليهم أن يكونوا على غير ما هم متلبسون به من كفر بآيات الله والباس الحق بالباطل وكتمان الحق ، فهو وان أعرب عن معنى نهيهم عن هذه الأفعال فان في صورة الاستفهام أعرابا عما هو أعلى من النهي ، فيه مع النهي تبكيت وتقريع ، وتبيان للضلال وتعجيب من حالهم التي لا تكون من عاقل اذ كيف يكفر بآيات الله من هو مشاهد صدقها وحقيقتها وكيف يلبس الحق بالباطل ويكتم الحق من هوعليم به؟!

* ومن هذا الضرب أيضا قوله تعالى : « أتخشونهم فالله أحق ان تخشوه ، ان كنتم مؤمنين » (التوبة /١٣) ٠

سبق بيان اعراب صدر هذه الآية عن معنى الأمر بالاستفهام في قوله « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ٠٠٠ » فهو اذ أنكر عليهم تقاعسهم عن قتال من يستوجب فعله الاثيم قتاله ، نهاهم عن خشيتهم ، فليسو أهلا لأن تخشوهم فالله أحق أن يخشى ٠

واذا أفاد الاستفهام تقريرا بفعل لا ينبغي أن يكون وتوبيخا عليه فان هذا الاستفهام يعرب ضمنا عن النهي عن ذلك الفعل ، لأنه ما يقرر عليه ويوبخ الا من أجل حثه على الكف عنه ، وذلك عين النهي وعبدالقادر يبين أنه مما تكنوله همزة الاستفهام التقرير بفعل قد كان ، والانكار له لم كان ، والتوبيخ لفاعله عليه ، فمحض المعنى في مثل هذا انه لينتبه السامع حتى يرجع الى نفسه فيرتدع لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله ، فاذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ (٢٣) أو لأنه فعل ما لا ينبغي ان يكون منه خاصة أو منه ومن غيره فما كان الاستفهام الانكاري فيه على معنى لا ينبغي أن يكون هو متضمن معنى النهي عن ذلك ، والارتداع عنه (٢٤) ، فكأنه قيل في هذه الآية « فلا تخشوهم واخشوني » (البقرة /١٥٠) الا أن ما عليه النظم في سورة التوبة آنس بسياقها من

---

(٢٣) ينظر دلائل الاعجاز ص ١١٤ ، ١١٩ ت/ شاكر (بتصرف) ٠
(٢٤) الايضاح ، وشروح التلخيص ٢/٣٠٠ ـ ٣٠١ ٠

أنها سورة المفاصلة والبراءة فكان الأمر بقتال المشركين بالغا مؤكدا فكان الآنس به الابلاغ فى النهى عن خشيتهم · والتوبيخ على ذلك ·

* ومن هذا الضرب فى القرآن كثير كما فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون » (الصف /٢) ·

يروى أن أناسا من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد قالوا لو نعلم أحب الأعمال الى الله لسارعنا اليه ، فنزل قوله تعالى « هل ادلكم على تجارة» فلما كان يوم أحد ، وكان ما كان من نكوص بعضهم نزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون » فناداهم بوصف يفرض عليهم ألا يكون منهم ما كان ، فان الدخول فى عقد الايمان ملزم بفعل ما وعد ، فعرض بهم وأنكر أن يكون ذلك منهم فقوله (لم تقولون) فى ظاهره سؤال عن علة قول لا يفعلونه ، وهى فى واقعه انكار وتوبيخ وتقريع على قول ما لا يكون منهم ·

ويمكن أن يكون قوله (يأيها الذين آمنوا) مرادا به المنافقون أى أمنوا بألسنتهم ويكون معهم من فعل فعلهم من الاكتفاء بالقول ، يكاد قوله « كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » يؤازر القول بأن المنادى هم المنافقون ، وهو المروى عن الحسن ، وظاهر كلام الزمخشرى وابن عطية الى اصطفاء الأول وترجيحه مما جاء من بعده من أمر الجهاد والقتال (٢٥)·

وينظر فى الاستفهام فى الآية أهو انكار متضمن النهى عن قول ما لا يفعل أم هو متضمن النهى عن عدم ما وعد به أو اخبر انه سيكون فيكون امرا بفعل ما قيل وعدا ؟ ·

ان قلنا ان الآية نزلت فيمن يتمدح بما لم يفعل يقول فعلت كذا وكذا وهو لم يفعل فانه لا يخفى أن المنهي عنه قول ما لم يكن ، لأنه من الكذب

---

(٢٥) الكشاف ٤/٩٦ - ٩٧ ، المحرر الوجيز ١٥/٥٠٠ - ٥٠٣ ، وانظر معه - البحر المحيط ٨/٢٦١ ، الفتوحات الالهية ٤/٣٣٥ - ٣٣٦ ·

وهو مقت لأنه يهدى الى النار ، وهذا الوجه لا يتناسق مع ما بعده من بيان ما يحب الله فى مقابلة ما يمقت .

وان قلنا ان الآية فيمن وعد ولم يفعل فان المعنى على « أن مدار التعبير والتوبيخ فى الحقيقة عدم فعلهم ، وانما وجها الى قولهم تنبيها على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط ، بل الوعد به أيضا ، وقد كانوا يحسبونه معروفا ، ولو قيل : لم لا تفعلون ماتقولون لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود فكان ما عليه النظم هو البديع الجامع اذ بين لنا من خلال النهج التركيبى أنه اذا ما كان قول ما لا يفعل من الخير مقتا كبيرا فكيف يكون ترك فعل الخير ، فكان نهيا عن أمرين سيق النظم اليهما معا وكان الأول مسوقا له الكلام أصالة وهو ترك فعل ما وعد به والآخر سيق له الكلام تبعا وهو الوعد بفعل لا يفعل . وان كان ظاهر العبارة لما سيق تبعا وهذا نهج بيانى لا يخفى فى الذكر الحكيم . فقد يكون ظاهر العبارة هو المسوق له العبارة تبعا كما فى قوله تعالى : « وأحل الله البيع وحرم الربا » (البقرة /٢٧٥) فالمعنى المطابقى لمنطوق العبارة وهو الحكم على البيع بالحل وعلى الربا بالحرمة لم يسق الكلام اليه أصالة بل تبعا وانما سيق أصالة لبيان الفرق بين البيع والربا اللذين ادعى الكافرون أنهما سواء « قالوا انما البيع مثل الربا » .

محصل القول أن اعراب اسلوب الاستفهام عن معنى النهى فى الذكر الحكيم غير قليل من أن الاستفهام التوبيخى على ايقاع ما لا ينبغى وكذلك الاستفهام التعجبى من وقوع أو ايقاع ما لا يصح أن يكون انما هو ظاهر وافر فى البيان القرآنى .

(ثالثا) اسلوب العرض والتحضيض

مما يستفاد منه معنى الأمر ما دل على العرض أو التحضيض ، وهو عند جمهور العلماء (هلا وألا ولولا ولوما) ٠

وانما جعلت دلالتها على الأمر من قبيل الدلالة الأسلوبية لا من قبيل الصيغة كما في الضرب الأول من أن دلالتها على التحضيض الذى هو طلب الفعل بحث ، أو العرض الذى هو طلب بلين انما هى دلالة سياقية تختلف باختلاف السياق ٠ ومن أن كثيرا من أهل العلم على أن هذه الادوات مركبة من أداتين اما (هلا) فانها من (هل) و (لا) وهل فيها دالة على التمنى و (لا) وهل فيها دالة على التمنى و (لا) للجحد ، ودلالة (هل) على التمنى دلالة غير وضعية ، بل ان دلالتها على الاستفهام دلالة استصحابية انتقلت اليها من طول استصحابها (همزة الاستفهام) عندما كثر اقترانهما استغنى بها عن الهمزة فاقتصر على (هل) ولم يجمع بينهما وكان مجرد حضورها مستدع فى الذهن دلالة (الهمزة) التى كانت قرينها ، فما فى (هل) من استفهام هو من (الهمزة) وطول الصحبة يعدى (الرجل على دين خليله) ، من ذلك كانت دلالة (هلا) على التحضيض طورا رابعا من أطوارها الدلالية ، وما كان كذلك فى الدلالة الأسلوبية السياقية أدخل ٠ واما (آلا) بالتشديد فهى عند أكثر اهل العلم (هلا) بقلب (الهاء) همزة ، أو هى اصل (هلا) بناء على أنها مكونة من (أن) و (لا) وتم خلاف بينهم فى نوع (لا) ، وكذلك (لولا) و (لوما) هى المركبة من (لو) الدالة على التمنى الذى هو دلالة سياقية لها و (لا) أو (ما) فكانت دلالتهما على التحضيض المتفرع من دلالة (لو) السياقية مع أداة النفى (لا) أو (ما) أدخل فى الدلالة السياقية(١) ٠

---

(١) ينظر آراء العلماء فى تكوين هذه الأدوات فى المفتاح للسكاكى / ١٤٧ ـ ١٤٨ ، شروح لتلخيص ٢/٢٤٢ ـ ٢٤٣ ، رصف المبانى للمالقى/ ١٧٠ ، ٤٧١ ، شرح المفصل لابن يعيش ١٤٤/٨ همع الهوامع ٦٧/٢ ، البرهان للزركشى ٢٣٦/٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ٠

و (هلا) لم ترد في الذكر الحكيم ، وأما (ألا) بالفتح والتشـديد فما نراه في قوله تعالى : « ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون » (النمل /٢٥) على قراءة الجمهور (ألا) بالفتح والتشـديد(٢) فان جمهور العلمـاء على أنها ليست أخت (هلا) ولا تعرب عن معنى التحضيض(٣) وقليل من أهل العلم من اشـار الى أن (ألا) هنـا تحضيضـيـة ، وثم قراءة غير عشرية (هلا يسجدون)(٤) فيكون المعنى على أن يطلب منهم بحث وعنف السجود لمن يخرج الخبء في السموات والارض ويعلم الخفي والعلن وهو ان كان لا ينبو عنه السياق فان القول به بحاجة الى بيان وجه حذف علامة الرفع في (يسجدوا) على قراءة الجمهور فاذا ما كانت (ألا) تحضيضية فان المضارع بعدها مرفوع لا منصوب ، وان قلنا انها ليست من ابدال « هاء » (هلا) همزة بل هي من (أن) الناصبة و (لا) فان مزجهما واستحالة الدلالة الأولى في كل من (أن) و (لا) الى دلالة أخرى مبطل اعمـال (أن) النصب في المضـارع بعـدها ، فيبقى نصب المضـارع (يسجدوا) في هذه القراءة العشرية يطلب وجها يليق بكمال الذكر الحكيم واعجازه .

وما عليه جمهرة النحاة من ان (ألا) بالتشديد مكونة هنا من (ان) و (لا) وغير معربة عن معنى التحضيض له عندهم وجوه فصل القول فيها تفصيلا لسنا الى استقصائه أو جمع أكثره (٣) اقربها عندى ان ليس

---

(٢) المبسوط لابن مهران ص ٢٧٩ ، ابراز المعاني لابي شامة ص ٦٢٦

(٣) التبيان للعكبرى ٢/١٧٢ ، البيان لابن الانبارى ٢/٢٢١ ، الكشاف ٣/١٤٥ ، نظم الدرر ١٤/١٥٣ ، تفسير البيضـاوى وحاشية الشهاب عليه ٧/٤٢ - ٤٣ ، تفسير أبي السعود ٦/٢٨١ ، الفتوحات الالهية ٣/٣٠٩ - ٣١٠ ، التحرير والتنوير ١٩/٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية ١٢/١٠٥ ، البرهان للزركشي ٤/٢٣٦ وانظر القراءة في الكشاف ٣/١٤٥ .

فى العبارة زيادة حرف ، بل فيها حذف لام العلة والمتعلق بقوله (صدهم) والتقدير وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله وحذف لام العلة من قبل (أن) غير قليل وقد تناولته فى بحث سابق(٥)

وكذلك (ألا) بالفتح والتشديد فى قوله تعالى : « ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » (النمل /٣١) فانها مركبة من (أن) و (لا)وليست للتحضيض سواء كانت (أن) مفسرة و (لا) ناهية أو ناصبة أو مخففة و (لا) نافية (٦) وذكر الزركشى انها فى الآية تحضيضية مركبة من (أن)الناصبة و (لا)النافية (٧) ويأتى عليه ما جاء على القول بالتحضيض فى (ألا يسجدوا) بالفتح والتشديد .

وأما (ألا) بالفتح والتخفيف فهى وان أفادت التحضيض أو العرض فى بعض سياقاتها كما قال به جمهور العلماء فان دلالتها عليه تحتمل وجهين أن تكون غير مركبة من همزة الاستفهام و (لا) بل هى موضوعة له وضعا أوليا وان تكون مركبة من الاستفهام والنفى ، على الثانى تكون داخلة فى « الاستفهام المعرب عن معنى الأمر » السابق القول فيه واذا نظرنا فى مواقع (ألا) بالفتح والتخفيف ومن بعدها مضارع فى الذكر الحكيم وجدنا أنها جاءت فى خمسة عشر موضعا(٧) فى آية التوبة « ألا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم » اختلف العلماء فجماعة على أن (ألا)

---

(٥) انظره فى (٦٨ - ٧٥) من كتابى سبل الاستنباط من الكتاب والسنة .

(٦) التبيان للعكبرى ١٧٣/٢ ، البيان لابن الأنبارى ٢٢١/٢ - ٢٢٢ ورصف المبانى للمالقى ص ١٧٠ ، الكشاف ١٤٦/٣ المحرر الوجيز ١٠٨/١٢ ، نظم الدرر ١٥٨/١٤ ، البيضاوى وحاشية الشهاب ٤٤/٧ .

(٧) بيان ذلك : التوبة (١٣) يوسف (٥٩) النور (٢٢) الشعراء (١١) ، (٢٥) (١٠٦) (١٢٤) (١٤٢) (١٦١) (١٧٧) الصافات (٩١) (١٢٤) الذاريات (٢٧) الملك (١٤) المطففين (٤) .

استفهام داخل على النفي(٨) وآخرون على أن (الا) حرف عرض ومعناها الحض على قتالهم(٩) والذى هو أقرب الى سياقها وما اكتنفها من أمر سابق بالقتال ولاحق أن تكون (ألا) هنا مكونة من الاستفهام والنفي الدال على انكار عدم قتالهم وتوبيخهم عليه فيتولد معنى الحض والحث على ايقاع قتالهم .

وفي سورة يوسف : « ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوف الكيل وأنا خير المنزلين » (يوسف /٥٩) فان المعنى ظاهر على أنه تقرير لهم بأنه يوفى الكيل حثا لهم على أن يأتوا بأخيهم وليس تحضيضا على الرؤية والعلم فذلك شاخص أمامهم بل على ما يلزمه .

وآية النور : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » (ى / ٢٢) فان حال سيدنا أبى بكر ظاهره يقتضى انزاله منزل من لا يحب فانكر عليه ذلك اذ فى حلفه الا ينفق على مسطح غضب عليه وعدم غفران له ، فانكر عليه ذلك كأن الذى يفعلها مع من يسيء اليه لا يحب أن يغفر الله حين يسيء مع ربه . فكان قوله (ألا تحبون) انكارا بالغا فيه حث على المغفرة ولذا ما كان من الصديق رضى الله عنه حين نزلت الا أن قال : بلى والله انا نحب أن تغفر لنا يا ربنا(١٠) فقوله (بلى) وسياق القصة يعنى أن (ألا) استفهام داخل على (لا) .

وفي سورة « الشعراء » سبع آيات ، كان خمس منها (ألا تتقون) في مقالة الأنبياء : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب لقومهم ، وذلك وان صح أن يقال انه عرض نظرا الى أنه يقال في أول الرسالة فانه أقرب الى أن يكون انكارا لحالهم من عبادة غير الله وعدم اتقاء عذابه . فان حالهم أدعى الى انكاره « والاستفهام الانكارى في معنى النفي . ونفى

---

(٨) كشاف ٢/١٧٧ ، البيضاوى والشهاب ٤/٣٠٧ .

(٩) البحر المحيط ٥/١٦ الفتوحات الالهية ٢/٢٦١ .

(١٠) ينظر تفسير ابن كثير ٣/٢٧٦ (ط / عيسى الحلبي)

النفى اثبات على أبلغ وجه فيفيد الحث والتحريض عليه »(١١) ومثل ذلك قوله فيها « واذ نادى ربك موسى أن انت القوم الظالمين ✻ قوم فرعون ألا يتقون » فانه استفهام تعجيبى من عدم تقواهم وابلاغهم فى الكفران ، وكان فيه حثا لموسى على الاسراع فى الاتيان اليهم .

وكذلك قوله تعالى فى السورة نفسها حكاية عن فرعون « قال لمن حوله ألا تستمعون » فانه ظاهر فى أنه للتعجب ، والتعجيب وليس حثا وحضا على الاستماع بل الغاية منه الاعراب عن أن ما جاء به «موسى» من ان رب العالمين هو رب السموات والارض وما بينهما انما هو عجيب منكر .

وما فى « الصافات » من قوله تعالى (ى/٩١) حكاية عن سيدنا « ابراهيم » فى خطابه الاصنام « فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون ✻ ما لكم لا تنطقون » .

فليس يخفى البتة هنا أنه لا يراد معنى الحض على أن يأكلوا ، بل هو الابلاغ فى الاستهزاء بهم .

وقوله فيها « وان الياس لمن المرسلين ✻ اذ قال لقومه ألا تتقون » (ى/١٢٤) هو كمثله فى سورة « الشعراء » وقد مضى ذكره .

وما فى « الذاريات » من قوله تعالى (ى/٢٧) حكاية سيدنا « ابراهيم » فى خطابه الملائكة « فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين ✻ فقربه اليهم قال ألا تأكلون » فان سياق الكلام دال على أن الملائكة لم تأكل ، ولم يكن يعرفها فانكر عدم أكلها ، فكان ذلك استفهاما انكاريا داخلا على عدم الأكل فتولد منه الحض والحث على الاكل على أبلغ وجه ، وهذا لا يخفى .

وما فى سورة « الملك » من قوله تعالى (ى/١٤) : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » فغير خفى البتة أن معنى الخطاب على أى وجه

---

(١١) عناية القاضى للشهاب على البيضاوى ٤/١٠٧ .

لا يكون هنا ، بل المعنى على انكار ونفى عدم احاطته علما بمن خلق ، فهو تحقيق بالغ لاحاطته العلم بما خلق ، وذلك أظهر من أن نبسط القول فيه ٠

وما في سورة « المطففين » من قوله تعالى : « ويل للمطففين * الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون * واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون » فغير خفى أن المعنى على أنه « انكار وتعجب عظيم من حالهم فى الاجتراء على التطفيف كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخمينا أنهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة والخردلة ٠٠٠ وفي هذا الانكار والتعجب وكلمة الظن ، ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لله خاضعين ووصفه ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الاثم فى التطفيف ٠٠٠ » (١٢) ٠

نخلص مما مضى أن (ألا) فى مواقعها فى الذكر الحكيم الأعلى أن ما كان منها فيه معنى التخضيض هو متولد من دخول الهمزة الاستفهامية على (لا) وأنها فى بعض تلك المواقع لم يكن فيها معنى التحضيض أو العرض ٠

أما (لوما) فلم ترد فى الذكر الحكيم الا مرة واحدة فى سورة « الحجر » : « لو ماتأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين » (الآية/٧) فغير خفى البتة أنها فى هذا السياق لا تفيد معنى التحصيض المعرب عن معنى الأمر الذى حددته من قبل ، فما هم بالطالبين حقيقة الاتيان بالملائكة ، بل هم الى التهكم به ، ألا ترى الى قولهم من قبله (انك لمجنون) ٠

وأما (لولا) فقد وردت فى القرآن الكريم خمسا وسبعين مرة كانت فى ستة وثلاثين موضعا للشرط ٠ وكانت فى تسعة وثلاثين موضعا لغير

---

(١٢) الكشاف ٤/٢٣١ ٠

الشرط (١٣) وهى اذ تكون للتحضيض الذى هو أمر بالغ بالفعل وحث بالغ عليه الا أنه قد لا يكـــون التحضيض للحث الحقيقى على ايجـــاد الفعل ، فقـد يكون لغيره كالتعجيز أو العنـاد والمكابرة نرى ذلك فى قوله تعـالى :

« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنـا الله أو تأتينـا آية » (البقـرة /١١٨) فذلك عتو وعناد ومكابرة فى اثبات النبوة من بعد قدحهم فى وحدانية الله بنسبة الولد اليه (وقالوا اتخذ الله ولدا ـ سبحانه) .

وفى قوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك » (الانعام /٨) على القول بأن الماضى يراد به المضارع فيفيد تحضيضا أو على القول بأن فى التنديم معنى التحضيض تضـمينا كمـا يذهب اليـه « العصـام الاسفريانينى » (١٤) فان ذلك منهـم انما هو للقـدح فى النبوة وليس طلبا حقيقيا للانزال فضلا عن أنه من أدنى لاعلى فلا يتحقق فيه معنى الأمر الذى حققته من قبل ، وهذا المعنى تكرر هو أو مثله من نزول الآية أو القرآن جملة أو نزول الملائكة فى المواضع الآتية (الأنعام/٣٧) .(الأعراف ٢٠٣) (يونس /٢٠) (هود /١٢) (الرعد /٧ ، ٢٧ (طه /١٣٣) (الفرقان /٧ ، ٢١ ، ٣٢) (القصص /٤٨) (العنكبوت /٥٠)

---

(١٣) ورد هذا فى المواضع الآتية : البقرة (١١٨) النساء (٧٧) المـائدة (٦٣) الأنعـــام (٨) (٣٧) (٤٢) الأعـراف (٢٠٢) التـوبة (١٢٢) يونس (٢٠) (٩٨) هود (١٢) (١١٦) الرعد (٧) (٢٧) الكهف (١٥) طـه (١٣٣) (١٣٤) النـور (١٢) (١٣) الفرقـــان (٧) (٢١) (٣٢) النمل (٤٦) القصص (٤٧) (٤٨) العنكبوت (٥٠) فصلت (٤٤) الزخـرف (٣١) (٥٣) الأحقـاف (٢٨) محمـــد (٢٠) الواقعـة (٥٧) (٦٢) (٧٠) (٨٣) (٨٦) المجـــادلة (٨) المنافقـــون (١٠) القـــلم (٢٨) .

(١٤) الأطـــول ٢٣٣/١ .

(فصلت /٤٤) (الزخرف /٣١ ، ٥٣) (المجادلة /٨) فهذه ثمانية عشر موضعا كانت (لولا) فيها معربة عن عناد الكافرين وصلفهم ٠

أما فى سورة « النساء » فقوله تعالى (ى/٧٧) : « وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب » وان كان طلبا فانه ليس من قبيل الأمر بل هو الى التمنى ، ومثله فى سورة « المنافقون »

من قوله تعالى (ى ،١٠) : « وانفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » فان معنى التمنى فى (لولا) غير خفى ، فليست مما نحن فيه ٠

أما ما فى قوله تعالى (ى ١٥) فى سورة « الكهف » : هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم من افترى على الله كذبا » فان دلالة (لولا) فيه على غير التحضيض جد جلية ، فان المعنى على التعجيز والتقريع والتسفيه والتضليل ٠

وما فى سورة « طه » من قوله تعالى : (ى ١٣٢) : « ولو أنا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » (ى/٤٧) ٠

وكذلك قوله تعالى (ى/٤٧) فى سورة « القصص » « ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » فان (لولا) الداخة على (أرسلت) ليست تحضيضية فان ذلك فى يوم القيامة على سبيل الغرض أى لو اهلكناهم فى الدنيا لقالوا فى الآخرة فهو فرض مرتب على ممتنع ، فلن يكون ٠

وأما فى سورة « الاحقاف » من قوله تعالى (ى/١٨) : « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك افكهم وما كانوا يفترون » فان دلالة التهكم والسخرية والاستهزاء بهم جد جلية ٠

وما فى سورة « محمد » من قوله تعالى (ى/٢٠) : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم » فانه دعاء وليس بأمر كما هو غير خفى (ى ٨٣ - ٨٦) .

وما فى سورة الواقعة من قوله تعالى (ى ٨٣ - ٨٦) : « فلولا اذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين » فان « لولا » فى الموضعين للتعجيز البالغ والتبكيت الفاضح كما لا يخفى.

واما قوله تعالى (ى/٦٣) فى سورة المائدة ، لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » فان « لولا » دخلت على مضارع فأفادت طلب النهى عن قول الاثم وأكل السحت وهو حث بالغ مفعم بالتوبيخ للربانين والأحبار على تركهم ذلك النهى عن المنكر ويحمل فى طياته تحضيضا لمن هو فى منزلهم من علماء الأمة وتحذيرا من أن يقعوا فيما وقع فيه الربانيون والاحبار فتكون العقبى سواء « لبئس ما كانوا يصنعون » فهو تنديم على ما وقع فى الماضى والحال وحث وتحضيض على ما يكون فى المستقبل منهم ومن فى منزلهم من أهل العلم ، فان قصص القرآن ما كان ممن سلف انما هو عظة وعبرة وتحذير بالغ لمن حذا حذوهم وتنكب مسعاهم .

ومثل لك قوله تعالى (ى/٤٢-٤٣) فى سورة « الأنعام » : « ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ❊ فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعون ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون» فانه وان كان الفعل الداخل عليه (لولا) المفصول بينهما (باذ) مضارعا فانه لا يخفى انه فى قوة الماضى ، فدلالة المنطوق التنديم والتوبيخ على ترك التضرع اذ جاءهم البأس فان المرمى اليه حض الحاضرين وحثهم على التضرع فى مثل هذا ، فليس القصد الرئيس الى قص اخبار من مضى بل حث السامعين على تحصيل ما فات السابقين

فأرداهم ، فهى تنديم يتولد منه تحضيض وطلب بالغ للتضرع فى الشدائد .

وقيل ان (لولا) هنا للتمنى على طريقة المجاز المرسل ويكون التمنى كناية عن الاخبار بمحبة الله الأمر المتمنى ، فيكون من بناء المجاز على المجاز فتكون هذه المحبة هى ما عبر عنه بالفرح فى الحديث « الله افرح بتوبة عبده » الحديث وتقديم الظرف المضاف مع جملته على عامله فى قوله (اذ جاءهم بأسنا تضرعوا) للاهتمام بمضمون جملته وأنه زمن يحق أن يكون باعثا على الاسراع بالتضرع مما حصل فيه من البأس » (١٥)

ومما هو على شاكلته قوله تعالى (ى/٩٨) فى سورة يونس :« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين » .

فلولا فيه تنديمية سيقت لتحضيض الحاضرين على الايمان قبل معاينة العذاب كما فعل قوم « يونس » ، فظاهر الكلام تنديم وتقبيح للقرية المهلكة ، وغايته تحذير وحث وتحضيض لاهل مكة على أن يكونوا كقوم يونس لا كقوم غيره من الامم الاخرى (١٦) وفى هذا اعراب عن اختصاص السورة باسم (يونس) وقد ذكرت اقوام غيره من الامم .

وكذلك قوله تعالى (ى/١١٦) فى سورة هود . « فلولا كان من القرون أو لو بقية ينهون عن الفساد فى الارض الا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين » .

---

(١٥) التحرير والتنوير ٢٢٨/٧ (والحديث المذكور رواه الشيخان: البخارى فى الدعوات ومسلم فى التوبة) .

(١٦) قد جاء فى صدر السورة قوله تعالى « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون » (ى/١٣ - ١٤) .

فظاهر النظم أنه تنديم على فائت ، ولكن المراد غير ذلك الظاهر فانه لامعنى لتنديم من هلك على ما فرطه بل هو الى تعجيب الحاضر من فعالهم وتقبيحها لهم فيتولد من ذلك التعليظ والتعجيب والتقبيح لما سلف الحث للحاضر على فعل ما فرط سلفه فأهلك به ففي الآية تحريض بطريق اللزوم لهذه الامة وطلب بالغ وحث على أن يكون منها بقية تنهى عن الفساد في الارض فتكون متناغية في معناها مع قوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (آل عمران ي/١٠٤) .

ومن الباب نفسه قوله تعالى (ى /١٢ - ١٣) في سورة النور : « لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك قديم * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » .

فان (لولا) هنا تنديم على ما كان منهم وتقبيح له يتولد منه تحضيض لهم ولمن بعدهم أن يحرصوا على ما فرطوا فيه من قبل في مثل تلك الواقعات ولو أن الأمة من بعد وقفت على ذلك فظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا ولم يقولوا الا ببينة لما شاع في الناس قول الفاحشة والرمى بها ، فلولا هنا تنديمية يتولد منها تحضيض وأمر بالغ بايجاد ما قبح فوته والتفريط فيه وهو في الأولى ظاهر وفي الثانية تحضيض على الا يقولوا بغير دليل قاهر لا ينتقض .

ومما دخلت فيه (لولا) على ماض فكان في قوة المضارع في افادة التحضيض قوله تعالى (ى/١٢٢) من سورة « التوبة » : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » .

من بعد أن أمر الله عز وعلا الذين آمنوا بتقوى الله في كل أمورهم وبأن يكونوا مع الصادقين بناصرة ومناصحة وتواصيا وتعاونا وتكثير سواد ، ونهاهم أبلغ نهي عن أن يتخلفوا عن رسول الله وأن يرغبوا

بأنفسهم عن نفسه نهاهم أيضا نهيا بالغا عن أن ينفروا كافة لغزو أو غيره فان في النفور من الكافة كمثل ما في التخلف من الكافة من الاضرار الذى لا يليق بمسلم أن يشارك في صنعه .

وفى نظم الآية وجهان من المعنى (الأول) أن النفر فى الموضعين واحد ، وهو النفر الى الغزو ، والنفر وان كانت دلالته عامة فى الانزعاج من الشيء أو اليه ، فانه فى البيان القرآنى انما هو للنفر الى الحرب ، فيكون المعنى فى الآية ما كان المؤمنون لينفروا الى الغزو كافة ، فلولا نفرت اليه من كل فرقة منهم طائفة وبقيت طائفة مع النبى صلى الله عليه وسلم تتلقى العلم وتتفقه لتنذر الفرقة النافرة الى الغزو اذا رجعت اليهم وهذا الوجه أظهر اتساقا مع الآية قبلها (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) فان فيه الوعيد البالغ لمن تخلف فكان ذلك داعيا الى أن يسارع كل مسلم الى الغزو اذا ما دعا الداعى اليه . فجاء قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) وكذلك أظهر توافقا مع ما روى « الكلبى » عن « ابن عباس » من أنه لما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين لتخلفهم عن الجهاد قال المؤمنون : والله لا نتخلف عن غزوة يغزوها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا سرية أبدا فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسرايا الى العدو نفر المسلمون جميعا وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده بالمدينة فأنزل الله تعالى هذه الآية(١٧) وكان النهى عن التخلف فى الأولى حين يكون الرسول صلى الله عليه وسلم خارجا بنفسه الى الجهاد فلا يصح لأحد قادر على الخروج أن يتخلف الا من يكلفه الرسول صلى الله عليه وسلم بالبقاء فى المدينة فيكون فى جهاد أيضا ، والنهى عن خروج الكافة وترك الرسول صلى الله عليه وسلم وحده حين يكون الخارج غيره من السرايا التى كان يبعثها . وذلك هو المروى عن « ابن عباس » .

---

(١٧) أسباب النزول للواحدى ص ١٧٨ - ١٧٩ .

وهذا الوجه من فقه معنى النظم فى الآية يكون الضمير فى قوله (ليتفقهوا) راجعا الى ما فهم من النظم قبله ، ولما كان ذلك المرجع المفهوم معربا عنه السياق لم تك حاجة الى التصريح به ، فكأنه قيل : وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفرت طائفة الى الجهاد وبقى آخرون ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم النافرين الى الجهاد لعلهم يحذرون .

وعود الضمير على ما يفهم من السياق نهج بيانى سائغ فى العربية حاضر فى الذكر الحكيم : « انا أنزلناه فى ليلة القدر » (القدر /١) وفى طى مرجع الضمير فى (ليتفقهوا) عن الذكر اشارة الى أنهم ليسوا الأعلى ظهورا والأشد قوة والأكثر عددا فى الغالب فحاجة الجهاد الى الأكثر والاقوى تفوق حاجة تلقى العلم فقد يقوم به الشيخ وذو الحاجة والمرأة . وفى طى ذكر الباقين للتفقه والتصريح بذكر الخارجين الظاهرين مشاكلة بين الفعل والعبارة عنه لا تخفى ، وكذلك فى اصطفاء كلمة (طائفة) للخارجين النافرين الى الغزو مشاكلة لفعلهم وحركتهم ونشاطهم ، وفى اصطفاء كلمة (قوم) مثل ذلك فهم القائمون بهذا الشرف العظيم .

والوجه الآخر فى معنى النظم يجعل الفعل فى قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) غيره فى قوله (فلولا نفر) فى الاول النفر الى الغزو والآخر النفر الى تلقى العلم . وفى اطلاق النفر على الذهاب الى تلقى العلم اما ان يكون مشاكلة لوقوعه فى صحبة الانزعاج الى الجهاد وأما أن يكون استعارة بتشبيه هذا بذلك فى المنزله والأثر والحاجة الى صبر ومصابرة وتعاون وفى صورة الفعل (يتفقهوا) ايماء الى حاجة العلم الى المصابرة . وأما أن يكون استخداما على طريقة « اسامة بن منقذ » القائمة على أن تكون الكلمة لها معنيان فتحتاج اليها فتذكرها فتخدم المعنيين(١٨) واما أن يكون ذلك من قبيل استخدام اللفظ « المتواطىء » من أن النفر انزعاج مطلق الى أى شىء أو من أى شىء

---

(١٨) البديع فى نقد الشعر ص ٨٢ (ط/ الحلبى سنة ١٣٨٠) .

فاستخدامه في الجهاد استخدام في أحد معانيه وكذلك في الذهاب الى تلقي العلم ، ومنه وان اختلفت في تخـــريج وصف استعمال الكلمـة (ينفروا - نفر) فان في جميعها ايمـاء الى أن الخروج الى تلقي العـلم احتسابا كالخروج في سبيل الله جهادا ، وفيه دعوة الى القيـام بحـق

تلقي العلم والهدى ، واعراب عن منزلة التفقه في الدين وتبليغه ، وأن في الرغبة عنه اضرارا كمثل الذى في الرغبة عن الجهاد ، فان بهما قوام الدعوة الى الله عز وعلا وانتصار الاسلام وترسيخ حكمه واتساعه. وعلى ذلك تكون (لولا) للتحضيض على النفر الى طلب العلم ، ويكون قوله (ليتفقهوا) متعلق بقوله (نفر) والضـمير فيه للطائفة النافرة وفي الاتيان بالضمير مذكرا جمعا (واو الجماعة) مراعاة لمعنى الطائفة الأخرى ، فانهم غير قليل أيضا وايماء الى حاجة التفقه الى الفرق والذكورة العزمية والى الاجتماع عليه فهو من الأعمـال التي ثمرة أدائها الجمعي أكرم أوفر من ثمرة أدائها الفردى ، فتلقى العلم ومدارســته والبحث فيه والقيام له وبه من جمـاعة أعظم نفعا من أن يكون من قام له أو به منفردا وذلك شأن أعمال الخير كلها .

والضمير في (لينذروا) و (رجعوا) يعود الى ما عاد اليه الذى في (ليتفقهوا) أما الضمير في (اليهم ولعلهم يحذرون) فانه لقومهم أى للطائفة التي لم تنفر للعلم .

والخطاب على هذا الوجه انما هو لمن كان بعيدا عن المدينة بموطنه، فينفر الى المدينـة ليتفقـه فيعود الى أهله فينذرهم . أو لمن كان من أهل المدينة وقد بعد عنها بغزو فتنفر منهم طائفة الى المدينة لتتفقه ثم تعود الى أصحابها في غزوها تعلمها وتنذرها لعل هذه الطائفة المرابطة خارج المدينة للجهاد تحذر ما يمكن أن يكون فيه مخـالفة لله ولرسوله صلى الله عليه وسـلم .

هذه وجوه يحتملها النظم وقد أقيم على هذا النحو من الابانة كيما يكون فيه الهدى لكل ، فكل وجه واقع من جماعة فيكون لها الهـدى في الآية

دونما تناقض فانه الذكر الذى لا يخلق على كثرة الرد ، وذلك وجه من وجوه اعجازه فى الابانة عن الهدى فيه ٠

ومما كانت فيه (لولا) تحضيضية معربة عن معنى الأمر البالغ فى الطلب قوله تعالى (ى/٤٥ - ٤٦) فى سورة « النمل » حكاية عن سيدنا « صالح » : « قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون » فان معنى الحث على الاستغفار وطلبه منهم جد واضح فى قوله « لولا تستغفرون الله » فهو فى قوة قوله (استغفروه) الذى جاء فى سورة « هود » (ى /٦١) « والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب » ٠

وكذلك قوله تعالى فى سورة الواقعة (ى/٥٧) « نحن خلقناكم فلولا تصدقون » فان معنى التحضيض والحث على التصديق بالبعث جد واضح فيه ، وهو لا يأمرهم بالتصديق بأنه هو الذى خلقهم فانهم غير مكذبين وانما هم مكذبون بالبعث » وكانوا يقولون أ اذا متنا وكنا ترابا وعظاما انا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون » (الواقعة / ٤٧ - ٤٨) فبين لهم أن الذى خلقهم أولا هو خالقهم ثانيا ، وأمرهم بتصديق ذلك وحثهم عليه ، وجاء من بعد ذلك بقليل قوله تعالى (ى/٦٢) « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون » وهو حث بالغ على أن يتذكروا ذلك ويعلموا منه أن الذى أنشأهم أولا هو باعثهم آخرا ٠ وجاء كذلك قوله من بعد ذلك (ى/٦٨ - ٧٠) « أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون » فهو حث وحض وأمر بالغ بشكر الله تعالى على نعمة الماء الذى به قوم الحياة ، فهو أمر ممزوج بالتوبيخ على عدم فعله قبل الحض ، وكأنه مما لا تحتاج الفطرة السوية على أن يحض صاحبها عليه بل يقوم به قبل ذلك ٠

وكذلك مما كانت فيه (لولا) تحضيضية قوله تعالى (ى/٢٨) حكاية عن أوسط أصحاب الجنة فى سورة القلم : « فلما رأوها قالوا

انا لضالون * بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون * قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين » ٠

فغير خفى ان (لولا) حين قالها أوسطهم أولا انما هي تحضيضية حيث طلب منهم أن يسبحوا الله عز وعلا أى تنزهونه عن أن يعصى بحرمان المساكين من الزكاة ٠ يقول « الزمخشرى » : (لولا تسبحون) لولا تذكرون الله وتتوبون اليه من خبث نيتكم ، كأن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك : اذكروا الله وانتقامه من المجرمين وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم وسارعوا الى حسم شرها قبل حلول النقمة فعصوه فعيرهم ، والدليل عليه قولهم : سبحان ربنا انا كنا ظالمين فتكلموا بما كان يدعوهم الى التكلم به على اثر مفارقة الخطيئة »(١٩) ٠

وغير خفى أن جعل (لولا) تحضيضية انما هو حين قالها أول مرة أما وهى فى حيز المقول المستفهم عنه فانها تنديمية توبيخية تتناغى مع دلالة الاستفهام فى (ألم أقل لكم) ٠

وغير خفى أيضا أنها وهى تحضيضية ليست من معنى الأمر الذى حققناه لأن أوسطهم ليس عاليا ولا مستعليا بل هى الى الارشاد والتنبيه أقـرب ٠

مما مضى تبين لنا مواقع (لولا) غير الشرطية وما كان منها دالا على تحضيض يتولد منه معنى الأمر وما كان منها غير ذلك ٠

---

(١٩) الكشاف ٤/١٤٥ ٠

(رابعا) دلالة الأمر أو النهى استلزاما على ضده

(أ) (النهى عن شىء تحريما يستلزم الأمر بضده) :

لقيت دلالة « النهى » عن شىء على « الأمر » بضده اختلافا بين أهل العلم اكتفى بذكر أهم ما قيل مصطفيا ما هو الأعلى ٠

* ذهبت طائفة الى منع أن يكون النهى عن شىء معين أمرا بضده لا عينا ولا تضمنيا(١) فالذى ينهى آخر عن النوم : (لا تنم) لا يعدو قوله هذا دلالته على كفه عن النوم ، وليس فيه دلالة على غير ذلك ، بل للدلالة على غيره طريق لغوى آخر ، ولذا كثر الجمع بينهما وعطف أحدهما على الآخر ٠

* وذهبت ثانية الى أن النهى عن شىء معين هو أمر بضده عينا(٢) أى أن كلا منهما عين الآخر أى أن الطلب واحد ، وهو بالنسبة الى الشىء نهى والى ضـــدة أمر ، ذلك أن ما دل على شىء هو دال على ما هو من ضروراته ٠

* وذهبت ثالثة الى أن النهى عن شىء معين ليس أمرا بضده عينا ولكنه يتضـــمنه(٣) ذلك أن المنهى طلب امتنـــاع عن هذا الشىء المعين ، فيلزمه طلب فعل ما هو ضـــده ضرورة أن الامتناع عن شىء يلزمه فعل ضـــده ٠

---

(١) من هذه الطائفة الجوينى والغزالى وابن الحاجب وبعض الشافعية وجمهور المعتزلة راجع : المستصفى ١/٨٢ ، البرهان للجوينى ١/٢٥٠ - ٢٥٤ ، المسودة /٧٣ ، بيان المختصر ٢/٤٩ ، فواتح الرحموت ١/٩٧

(٢) من هذه الاشعرى والباقلانى فى أحد قوليه ٠ راجع المسودة/ ٧٣ ، بيان المختصر ٢/٥٠ ، لتقرير والتحبير ١/٣٢١ ٠

(٣) من هذه الشافعى ومالك وجمهور الحنابلة والأحناف والباقلانى فى أحد قوليه ، راجع المســودة /٧٣ ، بيان المختصر ٢/٥٠ ، القواعد والفوائد /١٨٣ ٠

* وذهبت رابعة الى أن النهى عن شيء معين دال على الأمر بضده المعين تضمينا اذا ما كان له ضد واحد فان كان له أضداد كثيرة فانه يتضمن أمرا بواحد منها من غير تعيين(٤) فمن قال لغيره (لا تنم) فله أن يقف أو يجلس أو يسجد أو يركع •

* وذهبت خامسة الى أن النهى عن شيء معين دال على الأمر بضده اذا ما كان له ضد واحد فان تعددت الاضداد لم يدل على الآمر بشيء منها(٥) •

* وذهبت سادسة الى أن دلالة النهى على الأمر بضده خاص بالنهى التحريمى(٦) •

والذى هو أولى بالاصطفاء أن النهى تحريما عن شيء معين يتضمن الأمر بنقيضه على سبيل الوجوب ، فدلالته عليه ذات قيود ثلاثة : أن يكون النهى تحريما ، أن يكون المدلول على الأمر به هو النقيض ، أن سبيل الدلالة عليه الاستلزام •

فان كان للمنهى عنه تحريما أضداد عدة فان النهى يدل على الأمر بواحد منها ، والسياق يحدد واحدا منها فمن قال لابنه (لا تجلس) فان كان ابنه مريضا مثلا فان ذلك يعرب عن أمره بالنوم ، وان كان الحال تأديبا له فذلك معرب عن آمره بالوقوف فان نام كان كالجلوس المصرح بالنهى عنه ، يعصى به •

---

(٤) من هذه الشيرازى والكلوذانى راجع شرح النمع ١/٢٦٣ ، ٢٩٦ ، لتلويح ١/٤٣٠ الفصول ١/١٦١ - ١٦٢ ، التمهيد للكلوذانى ١/٣٣٤ ، ٣٦٤ •

(٥) ينسب لأبى حنيفة راجع المسودة /٧٣ ، التمهيد لأبى الخطاب ١/٣٦٤ ، التلويح ١/٤٣٠ ، الفصول ١/١٦١ •

(٦) راجع فواتح الرحموت ١/٩٧ •

واذا ما نظرنا في البيان القرآني رأينا أن الذي هو آنس به أن النهي عن شيء تحريما يتضمن الأمر بضده وكثيرا ما يكون النظم مسوقا لمعنى النهي سوقا أصليا ، ويفهم الأمر بدلالة المفهوم ، واذا يصرح بذلك المأمور به بدلالة المنطوق في موطن آخر كما هي سنة البيان القرآني يذكر الشيء في سياق تصريحا ويسوق النظم اليه سوقا أصليا ، وتكون الدلالة عليه دلالة منطوق صريح ، وفي سياق آخر يدل على ذلك الشيء بنفسه دلالة مفهوم ، وفقا لما يقتضيه السياق ، وهذا كثير لا يخفى ٠

وقد يصرح المأمور به ضمنا بعد النهي المستلزم له ويعطف عليه ومقتضى الظاهر أن يفصل بينهما لما بينهما من الاتصال ولكنه يعدل عن ذلك لأمر يرجع الى المعنى نفسه أو الى المخاطب أو يكون فيه مايجعله زائدا على ما عطف عليه حتى انه غيره ، ففصل اللازم عن الملزوم والمؤكد عن المؤكد ليس حتما في كل سياق فانه الأصل وقد يعدل عنه لما يقضي به الحال ، وما هذا بموطن تفصيله ٠

ومن سنة البيان القرآني أنه قد ينهى عن شيء والنظم مسوق للأمر بضده سوقا أصليا فيجعل النهي عن ذلك الشيء سبيلا للأمر بضده ، فيكون من قبيل الدلالة الكنائية ٠

والشاطبي لا يرى أن النهي عن شيء يمكن أن يكون مقصودا به الأمر بضده على سبيل القصد الأول ، بل أن يكون عنده على سبيل القصد التبعي(٧) من أن مذهبه قائم على أن معنى المعنى لا يكون سبيلا الى الدلالة على معنى رئيس وحكم تأسيسي ، بل هو تأكيدي عنده ٠

والذي هو آنس بالبيان القرآني غير ما ذهب اليه « الشاطبي » فقد يقصد بالنهي عن شيء الأمر بضده قصدا أصليا ، ويكون النظم مسوقا له أصالة ، وذلك ما تراه في نحو قوله تعالى : « ولا تكونوا أول كافر به » (البقرة /٤١) فليس يخفى أن السياق ليس لنهيهم عن أن يكونوا

---

(٧) الموافقات ١٠٣/٢ وانظر كتابي سبل الاستنباط ٤٣٨ ومابعدها

أول كافر به ، بل القصد الى الأمر بالمبادرة الى الايمان به . » والمعنى ليكن كل واحد أول من آمن به » (٨) ذلك أن : قرينة السياق دالة على أنه لا يراد تقييد النهى عن الكفر بحالة أوليتهم فى الكفر ، اذ ليس المقصود منه مجرد النهى عن أن يكونوا مبادرين بالكفر ولا سابقين به غيرهم لقلة جدوى ذلك ، ولكن المقصود الأهم منه أن يكونوا أول المؤمنين ، فأفيد ذلك بطريق الكناية التلويحية فان وصف (أول) أصله السابق غيره فى عمل يعمل أو شىء يذكر ، فالسبق والمبادرة من لوازم معنى الأول ، لأنها بعض مدلول اللفظ . ولما كان الايمان والكفر نقيضين اذا انتفى أحدهما ثبت الآخر كان النهى عن أن يكونوا أول الكافرين يستلزم أن يكونوا أول المؤمنين »(٩) فان السياق الى الابلاغ فى أمرهم بالسبق الى الايمان وكان طريق الكناية أقوى فى اثبات ذلك من أن كل عاقل يعلم اذا رجع الى نفسه وقد نهيت عن أن تسرع الى الكفر وأن تكون أول الواقعين فيه أن ذلك الحجاز المنيع والدافع العظيم الى الاسراع بالقيام بما هو عاصم من مقاربة ما نهى عنه ، فهو آكد وأبلغ من أن يدعى الى الاسراع الى الايمان والسبق اليه ، وأنه ليس الذى يراد منه الايمان بل الاسراع اليه والاعتصام به والتحقيق له تحقيقا لا يبقى بينه وبين الكفر مظنة اقتراب بل ولا حسبة اشتباه فالنهى عن الشىء أقوى فى الدعوة الى الاعتصام منه والى مجانبته من الأمر بنقيضه ، فالنهى كف عن فعل لا يتعلق بالوسع ولاستطاعة التفاوتين ، والأمر ايجاد فعل لا يكون الا بقدر الوسع « اذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه واذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » الحديث (١٠) من ثم كان اخراج الأمر بالسبق الى الايمان به فى صورة النهى عن أن يكونوا أول كافر به أبلغ وآكد وآنس بالسياق والغاية .

---

(٨) حاشية الكازرونى على تفسير البيضاوى ١/١٤٨ .

(٩) التحرير والتنوير ١/٤٦٠ .

(١٠) صحيح البخارى : الاعتصام (فتح البارى ١٣/٢٢٢) وصحيح مسلم : حج ـ حديث رقم ٤١٢/١٣٣٧ .

ومن هذا الضرب قوله تعالى : « يايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » (آل عمران /١٠٢) .

النهي في الآية كناية عن الأمر بالاسلام لله رب العالمين ، لأن المخاطبين لا يملكون ايقاع الفعل المنهي عنه أو عدم ايقاعه بالقصد الرئيسي فالذى يقضى به لسياق الدعوة بملازمة اسلام الوجه لله عز وعلا في كل حال من احوالهم وليس الأمر بالدخول في الاسلام بالانتقال من شرك أو الحاد الى توحيد الله عز وعلا المعبر عنه بالشهادتين ، ذلك أن المخاطبين على ذلك الاسلام فهم المنادى عليهم بفصل الايمان في الآية « يأيها الذين آمنوا » فالمدعو اليه هنا اسلام يعلو بصاحبه فوق درج التقوى انه درج التسليم المطلق لله رب العالمين تسليما لا ينقطع ولا يفتر . وجاء طلب ملازمة اسلام الوجه له جل جلاله في صورة نهى عن الموت على غيره اعرابا عن وجوب الجزم فيه وقطع الترخص والتفاوت ، فاذا كانت التقوى وهى في مدرجة الطاعة والقرب دون التسليم المطلق لوجه الله عز وعلا قد قيل فيها (حق تقاته) وهى التى دونها خرط القتاد وتقطع الأعناق فان ما هو أسمى منها وهو اسلام الوجه أحق بالابلاغ في طلبه فكان ما عليه النظم أوفى بحقه .

فالنهى كما ترى قد يأتى والمقصود الرئيس منه الأمر بضد مانهى عنه . اما أن يكون النهي هو المقصود الرئيس والأمر بضده لازم له فذلك لا يكاد يخفى وهو كثير جدا في الذكر الحكيم .

(ب) (الأمر بالشيء وجوبا يستلزم النهي عن ضده) :

المذاهب التى سبق ذكرها في استلزام النهى بشيء معين الأمر بضده هى التى عليها أهل العلم في استلزام الأمر بشيء معين وجوبا النهى عن ضده(١٠) الا أن ثم أمرين مختلفين :

---

(١٠) البرهان للجوينى ١/٢٥٠ ، المحصول جـ ١ ق ٢ ص ٣٣٤ ، المستصفى ١/٨١ - ٨٢ ، المعتمد لأبى الحسين ١/٩٧ - ٩٨ ، الاحكام للآمدى ٢/٢٥٢ ، التلويح ١/٤٣٠ ، أصول السرخسى ١/٩٤ ، شرح الكوكب المنير ٣/٥١ - ٥٤ ، السيد على الكشاف ١/٣٢ .

« **الأمر الأول** » أنه اذا كان المأمور به وجوبا له أضداد كثيرة فانه يستلزم النهى عن جميع تلك الاضداد ضرورة أنه لن يكون مطيعا لما صرح له بالأمر به الا اذا ترك كل فعل يناقض القيام من جلوس ونوم وركوع وسجود واضطجاع ... الخ وهذا مخالف لما اذا كان المصرح بالنهى عنه له اضداد كثيرة فان السياق يستلزم أمرا بواحد من هذه الاضداد ، فان فعل شيء من تلك الاضداد محقق لما صرح بالنهى عنه ، ولذا فان ذكر الأمر من بعد التصريح بالنهى عن ضده فائدته غير فائدة ذكر النهى من بعد التصريح بالأمر بضده اذا ما كانت الأضداد عديدة فى الحالين : قولنا : لا تنم واجلس غير قولنا اجلس ولا تنم : (فى الأول) كان ذكر (اجلس) بعد النهى عن النوم يجمع الى تأكيد النهى عن النوم تخصيص ما أبيح من الأضداد ، فان للمخاطب قبل عطف الأمر (اجلس) على النهى أن يفعل غير الجلوس ليكون محققا للنهى عن النوم (وفى الثانى) كان ذكر (لا تنم) تأكيدا للجلوس فهو يضيف قوة الى طلب الجلوس فصار الأمر بالجلوس بالغا ، فلو أنه حينئذ (قام) لكان عاصيا وهذا فيما كانت اضداده عديدة ، وله فوائد غير ذلك اذا ما كان الضد واحدا .

ومثل هذا ينفع ان شاء الله فى فقه دلالة عطف النهى على أمر تضمن الدلالة عليه ، وفقه دلالة عطف أمر على نهى تضمن الدلالة عليه فى الذكر الحكيم فى حالى تعدد الأضداد وعدم تعددها ، وهو باب واسع فى فقه الدلالة ليس هذا البحث معقودا له فيبسط القول فيه .

« **الأمر الآخر** » أن من أهل العلم من قال بأن الأمر بالشيء نهى عن ضده ولكنه سكت عن أن يكون النهى عن شيء أمرا بضده وبعضهم صرح بمنعه(١١) وفى هذا تفريق بين استلزام الأمر النهى عن الضد واستلزام النهى الأمر بالضد ويبدو لى أن ذلك من أن النهى كف والأمر فعل والكف لا يستلزم فعل النقيض فان الكف عن الاساءة مثلا ليس

---

(١١) ينظر بيان المختصر ٢/٥٠ ارشاد الفحول ص ١٠٢ .

فعلا للاكرام بينما فعل الاكرام كف عن الاساءة فان قيل : لا تكذب فان ترك الكذب قد يتحقق بالصمت عن الحق والباطل معا فلا ينطق ولا يمكن أن يقال انه عصى النهى ولا يقال انه صدق ·

والذى هو حق أن البيان القرآنى لا انفصال فيه بين التصريح بالنهى واستلزامه الأمر بضد المنهى عنه ، والتصريح بالأمر واستلزامه النهى عن ضد المأمور به ، الا أن السياق يقضى حينا بايراد المأمور به مورد الكناية فيصرح بالنهى عن ضده ، وحينا بايراد المنهى عنه مورد الكناية فيصرح بالأمر بضده وقد يجمع بين التصريح بالنهى عن الشئ والتصريح بالأمر بضده ويعطف أحدهما على الآخر ، وقد يقدم الأمر بشئ ويعطف النهى عن ضده وقد يكون عكس ذلك · ويظهر لى أن عطف النهى على أمر تضمنه أكثر فى البيان القرآنى من عطف الأمر على نهى تضمنه ويكثر هذا فيما كان المصرح بالأمر به أولا ذا شأن بالغ يراد الاعراب عن وجوب الاحتفال به والاعتناء بحقه واستفراغ الجهد فى ايقاعه ففى قوله تعالى مثلا : « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » (البقرة /١٥٢) عطف قوله (لا تكفرون) على قوله (اشكروا لى) وهو متضمن له فان شكر النعمة يستلزم الكف عن ضد الشكر ، وهو كفر النعمة · فى التصريح بالنهى عن الكفر دلالة على وجوب استقصاء جميع ضروب شكر النعمة ، واستمرار هذا الشكر ، فان شكر النعمة قد يكون باللسان وقد يكون بعدم تبذيرها وبحسن اتفاقها والتصدق بها فحتى لا يقتصر على وجه من وجوه الشكر صرح بالنهى عن كفرانها لأن من ترك وجها من وجوه الشكر وقع فى وجه من وجوه كفران النعمة والفعل فى سياق النهى والنفى كالنكرة يعم كل ضروبه وفى الوقت نفسه يستلزم الدوام عليه فان وقع فيما نهى عنه فى وقت فقد عصى بينما المأمور به ان فعله مرة حقق الأمر ، فكان فى التصريح بالنهى عن النقيض الذى تضمنه الأمر السابق وعطفه عليه فائدة تأسيسية تضاف الى فائدة تأكيد دلالة الأمر المصرح به فى صدر العبارة ·

وفى قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » (آل عمران /١٠٣) عطف قوله (لا تفرقوا) على قوله (اعتصموا) الأمر بالاعتصام بحبل الله انما هو أمر على نحو خاص هو الاعتصام الجمعى ، ولا يكفى فى تحقيقه اعتصام كل فرد من الأمة بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم أو بالاسلام عقيدة وشريعة فان ذلك لا يحقق المأمور به . بل الأمر منظور فيه الى الاعتصام الجمعى المتحقق من تمسك كل فرد بالكتاب والسنة فى نفسه وفى من يتولى الولاية عليه ومن مناصرة ومناصحة بقية الامة والتواصى بالحق وبالصبر وبالدفع عنها والذب عن حرماتها وتقوية شوكتها وتكثير سوادها فينصر كل أخاه ويحفظه فى غيبته ويؤازره فى دعوته ويناصحه ويتعاون معه على البر والتقوى . تلك حقيقة ما هو مأمور به فى قوله (واعتصموا بحبل الله جميعا) فان قوله (جميعا) عنصر رئيس فى بناء معنى الأمر لا يتحقق بغيره . ولما كان ذلك قد يغفل عنه أو يتهاون فيه ، فيظن أن الجمعية فى الاعتصام ليست ركنا ركينا لا يتحقق الأمر بغيره جاء قوله (ولا تفرقوا) مصرحا بالنهى اعلاما بأن الاعتصام الجمعى هو الغاية ، ففى النهى عن التفرق دلالة نصية على وجوب الجمعية التى كانت الدلالة عليها دلالة ظاهرية محتملة القطعية والظنية . وفى هذه الآية انكار بالغ على من يظن فى التزامه الفردى تحقيقا للاعتصام بحبل الله دونما القيام بالمناصحة والمناصرة والتواصى الذى به يتحقق الوجود الحق للأمة وبه يتشكل الكيان الراسخ لها وأنصار الباطل وبطانة الطاغوت يعرفون ذلك ، ولذا لا يقاومون التمسك الفردى بالكتاب والسنة ، وينادون دائما انهم لا يمنعون الناس من الصلاة والعبادات ، لأنهم يعلمون أن أثر ذلك عليهم غير عظيم ، ولكنهم يقاومون الاعتصام الجمعى والتناصر بالحق والتواصى بالصبر عليه ، فان فيه تقويضا لباطلهم .

(خامسا) الاخبار عن الفعل أو صاحبه

هذه الصورة تختلف عن الصورة الأولى من هذا الضرب فتلك اخبار بالفعل وهنا اخبار عنه ، وهذه أيضا نمطان الأول معرب عن أمر والآخر معرب عن نهي :

(أ) الاعراب عن الأمر بالشيء بالاخبار عن الفعل أو صاحبه وذلك بمدح الفاعل أو ترتيب الاثابة عليه أو الاخبار بمحبته أو دم تارك الفعل أو ترتيب عقوبته على تركه أو الاخبار ببغض تاركه ... الخ تلك التراكيب التي يفيض بها الذكر الحكيم فهي دالة استلزاما واستتباعا على طلب الفعل(١) ففي قوله تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » (الصف /٤) دلالة استلزامية على الأمر بالمقاتلة في سبيله مقاتلة متحدة صامدة متماسكة وهي مناظرة لما أشرت اليه في قوله تعالى واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا .

وكذلك قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » (الفتح /٢٩) فيه دلالة استتباعية لمدحهم والثناء عليهم على طلب أن يكون اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم اشداء على الكفار رحماء بينهم ، وكأن في الجمع بين وصف امام الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله ووصف الذين آمنوا معه دلالة على أن وصف كل انما هو وصف كاشف عن جوهره وحقيقته ، فما بعد قوله (محمد) كاشف عن حقيقته ووظيفته وما بعد قوله (الذين آمنوا معه) كاشف عن حقيقتهم التي يطلب الله منهم أن يكونوا عليها ملازمين لها محققين لها فان في ذلك تحقيق وجودهم وتكوين شخصيتهم . واذا ما كان الامام والقدوة قد قام بوصفه حق القيام وكذلك أصحابه فان على من جاء من بعد ذلك أن يقوم بهذين الوصفين خير قيام : أشداء على الكفار

---

(١) ينظر البرهان للزركشي ٢/١٠ ، الموافقات للشاطبي ٣/١٥٥ .

رحماء بينهم واقتراب أى مجتمع من هدى الاسلام اجتماعيا وابتعاده منه انما معياره هو هذان الوصفان (أشداء على الكفار رحماء بينهم) ٠

والآيات المخبرة بحب الله فعلا أو صاحبه أو ترتيب ثواب عليه أو ثناء على صاحبه الى غير ذلك انما هى آيات كثيرة ، وبالنظر فيها بدا لنا أن هذا النمط من الاعراب عن طلب تلك الأفعال انما هو فى الكثير الغالب لما كان قد صرح بطلبه وأخرجه فى صورة طلب صريح فى سياق آخر ٠ وهو حين يعرب عن طلبه بالاخبار بحبه أو حب صاحبه أو الثناء عليه انما هو نمط من الحث على ايقاعه على سبيل الرغبة فيه والدفع الى السعى الى القيام بمحبوب الله فتكون عبادة حب ورجاء وهو مقام من المقامات التى يحب الله أن يقوم فيها عباده ٠

ومثل ذلك الاخبار يغلب عليه فى الذكر أن يكون اعرابه عن الأمر على نهج ما لم يسق النظم له فأكثر ما يكون فقهه بسبيل دلالة الاشارة وهو سبيل قويم من سبل استنباط المعانى من بيان الذكر الحكيم ٠

(ب) الاعراب عن النهى عن الشئ بالاخبار عن الفعل أو صاحبه بذم ذلك الفعل أو فاعله أو ترتيب عقوبة عليه أو اخبار بانتفاء حبه الى غير ذلك مما يفهم منه ان الله ينهى عن فعله(٢) ٠ وهو كذلك كثير فى الذكر الحكيم

يقول الحق عز وعلا : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم وكان الله سميعا عليما » (النساء /١٤٨)

فصيغة (لا يحب (وان تكن اخبارا بانتفاء حب معمول الفعل (الجهر بالسوء من القول) فانه يلزمه تحريم ذلك المنفى حبه فهو فى معنى (لا تجهروا بالسوء من القول) الا أن التنفير فيما عليه النظم أعلى من

---

(٢) الموضعين السابقين ٠

التصريح بالنهى فما عليه النظم فيه تصوير لمن يقدم على ذلك فى صورة من هو مقدم على ما يغضب الله فهو ملق بنفسه فى التهلكة فيكون ذلك أدعى الى النفور ٠

وكان اصطفاء هذا النمط من الاعراب عن النهى عن ذلك الفعل من أن أثر الجهر بالسوء من القول فى تنافر الأمة جد عظيم ، فكلمة السوء جد فاعلة فى قطع الأواصر ، والسورة سورة تواصل الأرحام وأعلاها رحم الاسلام ، فنفر الله عز وعلا من ذلك ، ولكنه رخص لمن كان مظلوما أن يجهر بما ليس فيه عدوان وبما ينفس عما فى صدره من ضيق لظلمه درءا لما هو أشنع فقد يؤدى كتم قول السوء فى صدر المظلوم الى الاقدام على فعل لا يليق فرخص له كما رخص للمسلمين التخاصم الى ثلاث ٠ ولكنه لما رخص للمظلوم أن يجهر ـ دونما عدوان ـ بقول السوء لمن ظلمه جاء بقوله وكان الله سميعا عليما تحذيرا من الاعتداء فى الجهر ممن كان مظلوما وترغيبا له فى أن يكتم فان الله سميع عليم بما كان من ظالمه ثم ندبه الى الخير والعفو « ان تبدو خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا » وذلك أيضا نمط من أنماط الأمر بالخير والعفو عن السوء ٠

ومن هذا الباب قوله تعالى : «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » (الجمعة /٥) ٠

فى سياق سورة « الجمعة » المسماة باسم اليوم الذى عرض على اليهود فلم يقبلوا واختاروا « السبت » فكان وبالا عليهم ، جهالة وهم أهل كتاب ، وردا لاختيار الله وهم الزاعمون أنهم أحباء الله ٠ فى سياق هذه السورة جاء من بعد استفتاحها بامتنان الله على هذه الأمة أن بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وأخبر أن ذلك فضل يؤتيه من يشاء فكان لهذه الأمة ٠ فجاء قوله « مثل

الذين حملوا التوراة » تحذيرا لهذه الأمة التى أوتيت من الفضل ما لم يؤت مثلها حتى لا تقع فيما وقعت فيه اليهود حين أعطيت فضلا فردته ، وحين حملت فضلا فلم تنتفع به ، فكان هذا التمثيل البديع البالغ فى تحقير وازدراء ما وقعت فيه يهود أبلاغا فى نهى هذه الأمة أن يكون جهدها فى حمل كتاب الله ودرسه واستفراغ الجهد فى تفصيل وتحليل ما فيه من هدى وجمال فى شتى مناحى الحياة ثم لا يكون له فى حياتهم وحركتها أثر فاذا الانفصام المقيت البالغ بين الواقع الفكرى والواقع السلوكى ، فاذا هم أئمة فى فقه الدين ولكنهم الغائبون النافرون فى فقه التدين ، فمثل هؤلاء مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .

أى تنفير من الوقوع فى مثل هذا الذى لا يقوم عليه عاقل أبلغ منه ؟

انه البيـان البالغ فى التحـذير والنهى عن التلبس بشىء من ذلك المثل ذلك مال المعنى الذى نحن اليه قاصـدون وله قائمون ولسـنا الى ما فى هذه الآية من خصائص التمثيل البديع .

المهم أن النهى عن حمل كتاب الله دونما انتفـاع به انما جاء على هذا النحو البيانى : اخبـار عن حال اليهـود مع التوراة ، وحكم على ذلك ذلك الحال ، انما كان لأنه لا يحمل النهى عن حمل الكتاب دونما انتفاع به فحسب بل هو يجمع اليه الابلاغ فى تحقير حالهم والتشنيع به والتنفير منه والازدراء له ، فيقتلع من القلوب التطلع الى ما كان عليه يهود ، وهم الذين كانوا منـاط تطلع العرب ، فكان قوله (بئس مثل القوم الذين كذبوا) اجمالا بالغا فىالتنفير منهم ونهيا عن الاقتداء بهم .

والقرآن حين يعمد الى ذم أفعال وأصحابها أو يتوعد عليها أو يقرن مصير الخسران بها والنجاة يتركها واجتنابها انما يضرب على أوتار النفس فيلهبها رعبا وجزعا من التردى فيما ذم أو توعد فرارا مما ذم الى ما أحب ورضى ليكون العبـد حيث يحب الله له أن يراه جعلنـا الله عزوعلا حيث يحب منا أن نكون .

(أما بعـــد)

فان صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم ذات تنوع يتناغى مع ما يؤمر به وما ينهى عنــه ومع من يؤمر بذلك أو من ينهى عنــه ومع السياق المقالي والمقامي الذي تورد فيه الصورة ٠

وليس التصريح بالأمر أو النهي أقوى دائمــا من الكناية عنــه فان بعض صــوره غير الصريحة أقوى في طلب الفعل أو الكف عنه ، وان كانت دلالة الصــيغة على معنى الآمر أو النهي أظهر وأقرب ادراكا ، غير أن ما كان ظهورا ليس بلازم أن يكون أقوى في الدلالة ولكل مقام وسياق، فان تمام الدلالة ليس في ظهورها دائما فان للسياق مقالا ومقاما في هذا لسلطانا ٠

وادراك دلالة الصورة على معنى الأمر أو معنى النهي قد يحتاج الى ضرب من اللقانية لا يملكه الا ذو بصيرة نافذة ، وأحوج من ادراك دلالة الصورة الى هذا الضرب ادراك اقتضــاء السياق تلك الصورة وتناغيها معــه وأنســها به ، ونبو غيرها عنه ، فقــد يكون في ادراك دلالة الخــبر أو الاســتفهام على معنى الأمر أو النهي شيء من اليسر أما ادراك أنســه بمقامه فذلك الذي لا يتأتى لتمام الصواب فيه الا ذوو البصائر والا أقوام طبعوا على الذائقة الصافية المــالكة فنا من المعرفة في ذوق الكلام وما يأنس فيه وما يتناغى معه ٠

واني لا أزعم أني قد قمت بحق هذا ولكنني أوقن أني قمت له واختلفت وصابرت ، وأوقن أن من صور الأمر أو النهي ما غفلت عنه ، فذلك باب واسع التصرف بعيد الغاية دقيق المسلك لطيف المــأخذ ٠

وهو على الرغم من ذلك كالمقدمة الى باب فقه دلالة الأمر والنهي في الذكر الحكيم ، ففي ذلك الفقه عون بالغ على ما يحب الله من عباده ويرضى وما لا يحب أن يكون منهم فيكون العبد من الذين قال فيهم « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ٠

وصــلى الله على ســيدنا محمد وعلى آله وصــحبه وأمته والحمد لله رب العــالمين ٠

فهرس اهم المصادر والمراجع

١ ـ ابراز المعاني في القراءات السبع ، لابن شامة ـ تحقيق ابراهيم عطوة طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٤٠٢هـ ·

٢ ـ ارشاد العقل السليم (تفسير ابي السعود) ط/١٣٩٣ ـ بيروت ·

٣ ـ أصول السرخسي لابى بكر السرخسي · ت / الافغاني ـ ط/١٩٧٢

٤ ـ الأصول في النحو لأبي بكر بن السراج ت/ عبد الحسين القتلى ـ ط/ ١ سنة ١٤٠٥ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ·

٥ ـ الأطول شرح التلخيص للعصام الاسفرياني ـ طبعة تركيا ·

٦ ـ أنوار التنزيل (تفسير البيضاوي) :

ا ـ حاشية الشهاب : دار صادر بيروت ـ مصورة ·
ب ـ حاشية الكازروني : بيروت مؤسسة شعبان ·

٧ ـ البحر المحيط لأبى حيان الأندلسي ـ ط / ٢ سنة ١٤٠٣ ـ دار الفكر ـ بيروت مصورة أوفيست عن ط ١/ السعادة بالقاهرة

٨ ـ البرهان في أصول الفقة لامام الحرمين الجويني ـ تحقيق الدكتور عبدالعظيم الديب ـ قطر سنة ١٣٩٩ ·

٩ ـ البيان في غريب اعراب القرآن لابن الانبارى ت / طه عبدالحميد طه القاهرة سنة ١٤٠٠ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ·

١٠ ـ البيان في اعراب القرآن للعكبرى (المسمى بالاملاء) ط ١/ سنة ١٣٩٩ ـ المكتبة التوفيقية ـ القاهرة ·

١١ ـ التحرير والتنوير للطاهرين عاشور ـ الدار التونسية للنشر

١٢ ـ التلويح على التوضيح للسعد التفتازاني (طبعة صبيح)

١٣ ـ الحجة في علل القراءات السبع لابى على الفارسي ـ ت / على النجدى وآخرين ، القاهـرة ـ ١٤٠٣هـ الهيئـة المصرية العامـة للكتاب ٠

١٤ ـ الخصائص لابن جنى ت / محمد على النجار ـ ط / ٣ سنة ١٤٠٣ ـ عالم الكتب ـ بيروت ٠

١٥ ـ دلائـل الاعجـاز لعبدالقاهر ت / محمود شاكـر ـ مطبعة المدنـى القاهرة ـ نشر الخانجي ٠

١٦ ـ رصف المباني في شرح فروق المعاني للمالقى ت / أحمد الخراط ـ ط / ١٤٠٥ دار القلم ـ دمشق ٠

١٧ ـ شرح الكوكب المنير لمحمد بن أحمد الفتوحى (ابن النجار) ت / محمد الزحيلي ، ونزيه حماد ـ ط / ١٤٠٨ ـ جامعة أم القرى ـ

١٨ ـ شرح اللمع لابى اسحاق الشيرازى ت / عبدالمجيد ـ ط / ١٤٠٨ ـ دار المغرب الاسلامي ـ بيروت ٠

١٩ ـ شرح مختصر ابن الحاجب للعضد وعليه حاشية السعد وحاشـية السيد ـ ط / ١٤٠٣ ـ بيروت ـ مصورة عن طبعة بولاق سـنة ١٣٣٦هـ ٠

٢٠ ـ شرح المفصل لابن يعيش ط / مصورة ـ مكتبة المتنبى ـ القاهرة ٠

٢١ ـ شروح التلخيص في علوم البلاغة ـ ط بولاق سنة ١٣١٨ ـ القاهرة

٢٢ ـ فتح القدير (تفسير الشوكاني) محمد بن على الشوكاني ـ ط / ١٤٠٣هـ دار الفكر بيروت ٠

٢٣ ـ الفتوحات الالهية على تفسـير الجلالين لسليمان الجمل ـ ط / عيسى الحلبى ـ القاهرة ٠

٢٤ ـ الفوائد الغياثية لأحمد بن مصطفى طاشكبرى زاده ـ ط / تركيا سنة ١٣١٢هـ ٠

٢٥ ـ فواتح الرحموت على مسلم الثبوت لعبد العلى الانصارى ـ طبعة (٢) مصورة عن طبعة بولاق سنة ١٣٢٢هـ .

٢٦ ـ العدة فى أصول الفقه لابى يعلى الفراء البغدادى ت / أحمد المباركى ط / مؤسسة الرسالة ـ بيروت سنة ١٤٠٠ .

٢٧ ـ الكتاب لسيبويه ـ ت / هارون سنة ٤٠٣ ـ بيروت .

٢٨ ـ الكشاف للزمخشرى ومعه حاشية السيد وحاشية ابن المنير ـ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣٩٢ ـ القاهرة .

٢٩ ـ كشف الاسرار عن أصول اليزدوى ـ لعلاءالدين عبدالعزيز البخارى ـ طبعة باكستان ـ مصورة عن طبعة الشركة العثمانية.

٣٠ ـ المبسوط فى القراءات العشر لابن مهران ـ ت / سبيع الحاكمى ـ ط / جدة سنة ١٤٠٨هـ .

٣١ ـ المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسى ت / المجلس العلى بفاس ـ المغرب ط / ١٣٩٥هـ .

٣٢ ـ المحصول للرازى ت / العلوانى ـ ط / ١٤٠١ ـ الرياض .

٣٣ ـ المستصفى للغزالى ـ ط / ١٤٠٣ ـ بيروت مصورة عن طبعة بولاق سنة ١٣٢٢ .

٣٤ ـ المسودة لآل تيمية . تقديم محمد محيى الدين ـ ط / المدنى ـ القاهرة .

٣٥ ـ المصباح لابن الناظم ت / حسنى عبدالجليل ـ ط / ١٤٠٩ ـ مكتبة الاداب القاهرة .

٣٦ ـ المطول : شرح التلخيص فى علوم البلاغة لسعدالدين التفتازانى ـ طبعة احمد كمال سنة ١٣٣٠ ـ تركيا .

٣٧ ـ معانى القرآن للفراء ت / محمد على النجار ـ ط / عالم الكتب سنة ١٤٠٣ بيروت .

٣٨ ـ المعتمد في أصول الفقـــه لابي الحسين البصرى ـ ط / بيروت سنة ١٤٠٣هـ ٠

٣٩ ـ مغنى اللبيب عـن كتب الأعاريب ، لابن هشام الانصارى ومعـه حاشية الامير طبعة عيسى الحلبى بالقاهرة ٠

٤٠ ـ مفتاح العلوم لابى يعقوب السكاكى ـ ط / سنة ١٣٥٦ ـ مصطفى الحلبى القاهرة ٠

٤١ ـ الموافقات فى أصول الفقه لأبى اسحاق الشاطبى ت / دراز ـ ط / ١٣٩٥ ـ دار الفكر العربى ـ مصورة ٠

٤١ ـ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ـ ط / دار المعارف العثمانية / حيدر آباد ـ الهند ٠

٤٣ ـ همع الهوامع للسيوطى ـ ط / دار المعرفة ـ بيروت (مصورة)٠

فهرس الموضوعات

استدراك أهم الأخطاء

ص	س	الصواب
٥	٢	بكثير
١٢	٢٣	عليه
١٣	١٧	ما أوحى
١٥	١٥	أن نهى عن فعل
١٦	٧	بينما
١٦	٢٢	ثلاثة
١٦		الأخير وهذه الثلاثة : خشية الله واتقاء الاقتراب ...
١٧	١	هذه الثلاثة هي التي
١٧	٦	عائد إلى
١٨	١٣	الكريم
١٨	١٨	الكلام
٣٣	٣	أطوار
٣٧	٣	فيه من الايجاز
٣٩	١٨	فيخرجوه
٤٨	١٦	وما حكى من نحو
٥٢	٥،٧	وذلك كقوله
٥٨	٢٣	مذلة الدين
٦٠	١٥	تصدقوا
٦٠	٢٠	تعلمون
٦٢	١٩	١٥٠ ـ ١٥٢ ـ ١٥٤
٦٢	٢٢	٢٣١ ـ ٢٣١ ـ ٢٣٢ ـ ٢٣٥ ـ ٢٣٥
٦٥	٦	(آل عمران /١٣٠)

ص	س	الصواب
٦٩	١١	خيرية لفظا ومعنى
٧٣	١٣	ظاهر العبارة
٧٦	١٦	صارفة
٨٥	٣	معربا عن
٨٥	٢٠	أشرت
٨٥	٢٣	يستجيبوا لما
٨٨	٦	الجائرة
٩٠	١٧	التقوى
٩٣	١٢	وما كان
٩٥	٣	فيه بلاغ
٩٥	١٩	ذاته
٩٦	١	خاصة
٩٩	٥	وعن الصلاة
٩٩	٥	(المائدة /٩١ ـ ٩٢)
١٠١	٧	لما قضته
١٠١	١٦	الا هو
١٠١	١٢	(هود /١٣ ـ ١٤)
١٠٤	١٤	رب العرش عما يصفون
١٠٦	٢٣	(٣٤ ـ ٤٠)
١٠٨	٢٣	(التوبة /١٣)
١١٤	١٩	عدم فعل
١١٦	٩	يحذف ما يأتي (وهل فيهما دالة على التمني و (لا)

ص	س	الصـــواب	ص	س	الصـــواب
١٢٣	١٤	(ى /١٣٤)	١٣٠	٤	(ى /٤٦)
١٢٣	٢٠	أهلكناهم	١٣٠	١٥	(أئنا لمبعوثون)
١٢٣	١٦	يحذف (ى /٤٧)	١٣٤	٧	نفســه
١٢٣	٢٢	(ى /٢٨)	١٤٤	٨	ما كان أعظم ظهورا
١٢٣	١٥	لقالوا ربنــا	١٤٥	١٨	التبيـــان
١٢٤	٤	يحذف (ى/٨٣ـ٨٦)	١٤٦	١٢	عبد المجيد تركي
١٢٤	٧	قص	١٤٩	١٢	الخــلاف
١٢٥	١٨	من قبلكم أو لو بقية			

رقم الايداع بدارا لكتب ٢٦٣٢/١٩٩٣